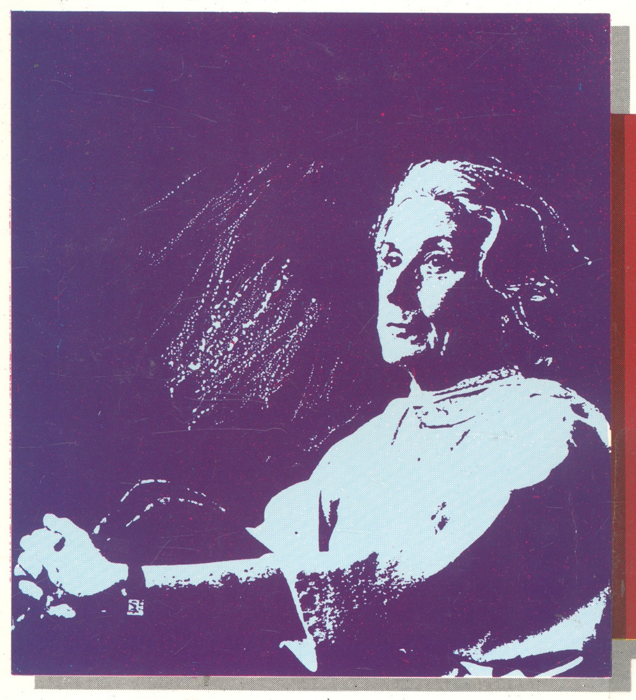
مدينة للأموات . مدينة للأحياء

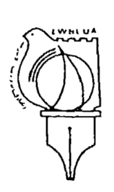


قصص

نادين غورديمر

ترجمة : صبحي عمر

مدينة للأموات . مدينة للأحياء



منشورات اتحاد كتاب وادباء الإمارات
الطبعة الأولى - 1992

قصص قصيرة

مدينة للأموات . مدينة للأحياء

نادين غورديمر

ترجمة

صبحي عمر

الغلاف والاخراج : الفنّـــان محمـد فهمـــي



الزحف الخافت

كـان في الســادســة والعشرين من عـمــره لا أكثر. تحسنت حـالتــه سريعـا. وصــار ممكنا دفـعه على كرسي العجلات، إلى الحديقة.

كانت تربطه بالحديقة مودة كبيرة. وكان الجميع يقولون له دائما: «حـسنا ســوف تتــعـافى قريبا، وتتمكن من الجلوس في الحديقة..».

كـانوا يقـولون له ذلك بحماس، ينقـصــه الفهم الحقيقي لما يدور في تثنيـات ذهنه. صحيح أنه سيخرج الى الحديقة الكبيرة التي يلفـهــا في العتمة والظل عريش من أعواد «التنوب» الملساء ذات الرؤوس المدببة.. سوف يتمكن أيضا من الجلوس بعيدا في

عمقها، تحت أهداب الظلال المسطرة ترسمها صفوف أعواد العريش.. كان الجميع يعتقدون أنه سوف يتقبل الأمر ويتفهمه بسهولة، خلال تردده المتواصل على الحديقة.

انتابه شعور غريب حين دفعت زوجته الكرسي المتحرك إلى الحديقة للمرة الأولى. تذكر نفسه وهو صبي، بينما كانت تتقدم به بتؤدة على الممر، حين كان يقف على كفيه، وينظر إلى الدنيا مقلوبة ، بين كاحليه..

كان كل شيء هائل الضخامة ومفتوحا.. هبوب الريح منعكس في تماوج الخضرة وارتعاش الورود، واهتزازها دون أن ترضى بالانحناء.

الحركة تملأ المكان!

هبت ريح رخوة أحس بها تبحر في داخله.. تحمله برقة متناهية شعر بها في داخله.

دفعت الكرسي إلى الأمام بكل عفوية قوة ذراعيها النحيلتين الجميلتين.. لم يعترض على أسلوبها ولم يقترح الاستعانة بممرضة، تكون أفضل، لأنه يعرف أن ذلك سيؤذيها.. وصلا إلى المكان المفضل لديه، فأوقفت الكرسي، وثبتت عجلاته بالكابحة.. تركته هناك لقضاء الصباح، كانت تلك المرة الأولى، ومنذ ذلك، صار يأتي كل صباح..

كان يقرأ كثيرا، لكن تفكيره يكون أحيانا، أسير تذكر مفاجيء لحاله، حين تقع عينه على الدثار الذي يستر مكانا كانت له فيه ساق يوما ما.. كان ينظر إلى مكانها، فيدرك أن ساقه ليست هناك.. يشعر بها تضمحل وتتلاشى ببطء، من

أطراف أصابعه حتى أعلى فخذه.. وبعد دقائق، يعود إلى كتابه.

لم يسمح لذلك الادراك أن يستولي على أحاسيسه.. لقد جعل نفسه يدرك اختفاءها ماديا، دون أن يتيح الفرصة لهذه الحقيقة أن تنفذ إلى أعماقه. كان يشعر بها تضغط عليه باضطراد، وتعاوده مظلمة، مدمرة، وجاهزة للانفجار، لكنه كان يفلت دائما، في الوقت المناسب.. بالعودة إلى كتابه..

هذا هو الأسلوب الذي اتبعه للمواجهة.. يدع الادراك الحسي يأتي ببطء.. يتركه يقترب كثيرا دون مقاومة، مرة بعد أخرى، بحيث يوشك أن يقبض عليه وحيدا في الحديقة.. وفي كل مرة، يراوغه وينصرف إلى الكتاب.

أصبح هذا الأسلوب، بالتدريج، عادة لا تصل إلى مرحلة الادراك.. واكتشف، يوما، انه بلغ ما أراد:

استطاع أن يشعر بأنه كان هكذا دائما! كان بلوغ هذا الاحساس، في اعتقاده نقطة بداية زوال الخطر السرمدي.

لم يعد يشعر بالحاجة إلى القراءة طيلة الوقت، خلال أسبوع أو أسبوعين، صار يطرح كتابه جانبا، ويتفرج على ما حوله.. يراقب الأعواد الملساء يراها حريرية، ومصطفة كشعر طفل.. يراقب الطيور تتوازن على أسلاك أعمدة الهاتف.. يراقب ذكر الحمام العجوز السمين يهرول خلف امرأته الرمادية ذات المشية «الأرستقراطية» يهدل ويتحرق شهوة..

جاءت زوجته وجلست بجانبه تخيط قطعة قماش.. كانا يتحدثان أحيانا، لكنهما في الغالب يجلسان ساعات طويلة في صمت: هي تؤدي عملها وتتحرك بخفة العصفور.. بهدوء

ودون تطفل أو فضول، بينما يريح هو رأسه إلى الخلف، ينظر إلى مسحة ضبابية من الشمس، بعينين شبه مغلقتين.. عند العاشرة، كانت تترك الخياطة، وتدخل إلى المنزل لاعداد الشاي.

مرت جرادة كبيرة، يوما، مسرعة قرب رأس زوجته، ففزعت لأزيزها، وقفزت صارخة ملقية بأدوات الخياطة..! ضحك كثيرا، وهي تلم ما رمت، عن الأرض، وتتبرم غيظا. دخلت إلى المنزل لاعداد الشاي، وراح هو يقرأ. لكنه نحى الكتاب بعد قليل، ولاحظ بكرة قطن وردية نسيتها زوجته.

ابتسم حين تذكرها، ثم أثار انتباهه وجه رجولي غامض صغير الحجم، متسمر فوقه في حالة تنويم مفزعة.. كانت جرادة ضخمة، ذات وجه مسل.! وجه طويل يوحي للوهلة الأولى بأنه رأس أصلع، له فم كالح كئيب. كانت تبدو كأنها جسم صغير لاحدى شخصيات ألعاب «ديزني» الكرتونية.

رآها تتحرك ببطء، وتواصل النظر إليه مذعورة. لم يعرف في السابق أن هيئة الجراد قميئة إلى هذا الحد! طبيعي أن يكون الأمر كذلك، فالجراد يأتي في جماعات.. ومن الذي يهمه التدقيق في منظر حشرة؟!

كان وجها إنسانيا ومعبرا. لكنه، حين رأى جسمها، وجد أنه لا يمكن أن يوصف أنه جسم بأي حال. فصلتها بالانسانية تنتهي برأسها.. جسدها كورقة شفافة رديئة النوع لفت حول عود ثقاب مثل طائرات الصغار الورقية التي تصنع في البيوت، أما سيقانها فلا يمكن اعتبارها كذلك. الساقان الخلفيتان مسننتان كالمنشار، وتشبهان بقايا رافعة قديمة. والأماميتان

أشبه بدبوس شعر مفتوح الذراعين..!

رفعت الجرادة إحدى ساقيها الخلفيتين، وحركتها مرتعشة فوق رأسها، ثم نكست قرن الاستشعار، كما يفعل رجل يمسح جبينه بمنديل.

أخذ يشعر باهتمام عظيم بهذا المخلوق، وانحنى فوق كرسيه ليراه عن قرب. حركت الجرادة مشاعره فجأة! دهش لوجود نبض لقلب يخفق تحت جناحيها القاسيين كصفائح المعدن. عجب لسرعة نبض تنفسها.. انحنى أكثر ليخيفها قليلا.

راقبها بعناية بالغة، دون أن يتحرك، في محاولة لكي تظل صورة وجوده خارج إطار وعيها.. كان معنيا بمتابعة صراع يدور داخل ذلك الشيء.. كانت تبدو كأنها تحاول تجميع نفسها بتركيز قوى عضلاتها، ودمجها في قوة واحدة تسري في جسدها على شكل ارتعاشة سرعان ما تذوي متلاشية، وتنتهي بدوران بسيط للجسم عند ساقيها الخلفيتين، لكن الجرادة ظلت مكانها، كررت المحاولة مرارا، وانتهت، يا للمفاجأة، ببضع خطوات عرجاء متهالكة، جعلتها مرة أخرى تحلق كالطائرة، ثم هوت على الأرض!

سقط ذلك المخلوق، مستلقياً على جانبه، وقد التوى «هوائي» الاستشعار تحته.. حاولت الجرادة أن تتلمس الأرض الناعمة بأقدامها والتشبث بها، لكي تعدل وضعها.. نجحت أخيرا في الوقوف.. وحين انحنى مرة أخرى لكي يرى ماستفعل اكتشف مشكلتها الحقيقية. وجد أنها تعاني مما يعاني!

لقد فقد ذلك المخلوق ساقا!

راح يراقب الجرادة، تحاول مرة أخرى، تجميع قوتها، بذلك التقلص المستمر للعضلات ثم الشروع في اندفاعة لا يطاوعها الجسد.. كان يدرك تماما الشعور الذي يستولي على الجرادة. فمن الطبيعي أن يحس بما تشعر.

كان مثلها تماما، لا يزال يملك الجزء العلوي من الساق.. فلماذا لا يحاول مثلها؟! وقف على ساقه الأخرى، ليبدأ التجربة، فرأى بقايا ساقه الأخرى مشرعة في الهواء، بعيدة عن الأرض.

ضحك بحرارة وطأطأ رأسه.. كان يعرف مسبقا ما سيحدث وهتف هاتف في داخله: يا إلهي الرحيم، إنني مثلها!

نادى زوجته في المنزل:

تعالي بسرعة! تعالي وانظري! لديك مريض آخر!

صرخت من الداخل..

«ماذا؟! انني أحضر الشاي».

– «تعالي وانظري! بسرعة!»

وصلت إلى حيث الجرادة، وسألت مستنكرة:

«ما هذه ؟!»

– «إنها جرادتك!»

قفزت مبتعدة وصرخت مذعورة، وهو يقول:

– «لا تنزعجي! لا تستطيع التحرك! إنها غير مؤذية، مثلي بالضبط! لقد اقتلعت ساقها حين لطمتها لابعادها عنك».

صحيح أنها أحست بالاشمئزاز من الجرادة، في البداية، لكن ايقاع الأذى يجلب لها اشمئزازا أكثر حدة.

قالت وهي تقترب:

«لم يحدث! لم ألمسها أبدا! كان الهواء هو ما لطمت لم يكن بإمكاني ضربها، فكيف ببتر ساقها..؟»

قال ساخرا:

- «لا بأس إذن! هي جرادة أخرى! لكنها فقدت ساقها، على أي حال! يجب أن تحاولي مساعدتها فهي لا تعرف أنها فقدت ساقا، يارب! انني أعلم بما تشعر! راقبتها وأجزم بأمانة أنها تحس بما أشعر!»

ابتسمت له بنظرة جانبية، وبدا فجأة أنها مسرورة لشيء ما.. استجمعت نفسها من جديد، وتقدمت مسندة يديها على ردفيها.

قالت:

«حسنا، ولكن إذا كانت لا تستطيع التحرك..»

قاطعها ضاحكا:

- «لا تخافي ! المسيها!»

حبست أنفاسها وتنهدت..

«مسكينة! لا تستطيع السير!»

قال مداعبا:

- «لا تعوديها على استجداء الشفقة!»

نظرت إليها وضحكت.. ظل وجه الجرادة متجها إليها. قالت:

«ماذا سيحدث لها؟!»

أجاب محاولا أن يتجنب مسؤولية مباشرة للرد:

- «لا أدري، ربما تنمو لها ساق أخرى.. السحلية ينمو لها ذيل جديد إذا فقدت ذيلها»

قالت:

«السحالي نعم، لكن ليس هذه! أخشى أن تأكلها القطة».

قال:

– «احضري كرسيا صغيرا لها فتستطيعين اخراجها إلى هنا معي».

ضحكت..

«نعم! سيكون من الأفضل، بالنسبة لها احضار عربة ذات عجلات!»

قال:

– «وربما تستطيع المشي بعكازتين!»

قالت، وهي تنحني فوق الجرادة مرة أخرى.

«المسكينة!»

التقطت عن الأرض غصنا صغيرا، ولمست الجرادة برفق، قالت:

«أمر مضحك! الساق ذاتها أيضا! اليسرى!»

نظرت نحوه وابتسمت..

قال ضاحكا:

– «أعرف.. كلانا..»

-وطأطأ رأسه وابتسم، وردد:

- «كلانا...»

ضحكت، ودفعت الغصن بقوة أكثر مما قصدت.. فسمعا صوت حركة وارتفاعٍ.. طارت الجرادة هاربة!

وقفت والعود في يدها، وقد عاودها بعض الخوف من ذلك المخلوق، وتساءلت كالطفل:

«ماذا حدث؟! ماذا حدث؟!»

مرت لحظة صمت، قطعها بتبرم:

- «لا تكوني بلهاء!»

نسيا أن الجراد يستطيع الطيران!

في
يوم اثنين بالتأكيد

كـان جـوسـيـاس، زوج أخـتـي، يعـمل في مصلحة السكك الحديد، ولكنه عثر فيما بعد على وظيفة في المكان الذي يصنعون فـيـه الديناميت لاستخدامه في المناجم. وكانت وظيفته الجلوس على ذلك المقـعـد الصغير، المثبت بالشاحنة من الخلف حاملا في يـده رايـة حمـراء، لـكـي يلوح بها لتـحـذيرك إذا كنت تقـود سيارتك. بالقرب من الشاحنة، أو على وشك الاصطدام بها.

رأيـت تـلك الشـاحنات، في السـابق كـثيرا، على طريق «مين ريـف» بـين جـوهـانسبرغ وقـرى المناجم، وهي تقل الموظفين والعمال، وقد كتبت عليها عبارة «خطر – متفجرات».

يجـلس الرجل في ذلك المقـعـد، ويثـبت نفـسـه به بواسطة

سلسلة معدنية لحمايته وعدم القذف به إلى الطريق، ويظل ممسكا برايته مثل طفل يتشبث ببالون.

هكذا كان جوسياس!

وبالطبع، فإنك إذا لم تنتبه أو تأبه لتحذيره، وواصلت الاندفاع وارتطمت بالشاحنة، فسيكون جوسياس أول من يتفجر مقذوفا إلى السماء والجحيم. ولكنه يظل دائما، جالسا هناك، يتفلّع بالشقوق، وكأنه ليس لديه أية فكرة عن أنه قد ولد، أو أنه لن يبلغ الثمانين ليموت على سرير الشيخوخة.. كان يتصرف كأن الغبار الذي يملأ عينيه، وصخب الشاحنة سوف يستمران إلى الأبد.

كانت أختي التي تعمل ممرضة تعرف أن لها زوجا طيبا. ولكنها لم تقل يوما انها تخشى طبيعة عمله. كانت تجلس في الشتاء، تدمدم وتتذمر وتسعل، بينما يكون هو في الخارج قابعا على مقعده في البرد. أما في الصيف، وحين كانت الأمطار تنهمر طيلة النهار، فقد كانت تقول انه يهبط على الأرض كسيحا ومصابا بالروماتيزم. «وعندها من سيمنحه عملا؟! جماعة الديناميت»

لا أظن أنها فكرت مرة، بأنه يمكن، في أي يوم أن ينسف بدلا من أن يعود إلى المنزل في المساء.. وعلى أي حال فلن تستطيع أن تتخيل رد فعلها، حين أخبرنا بما يتوجب عليه عمله.

كنت أعمل، آنذاك، في كراج بالبلدة، عند مضخات النفط. وكنت أتناول الطعام قبل وصوله، لأن عملي كان في الفترة

الليلية.. جهزت إيما الماء له. واغتسل دون أن يتحدث كثيرا، كعادته، ولكنه لم يتكلم أيضا، عندما جلسا للأكل. وحين غاصت أصابعه في صحن الذرة، بدا أنه لم يعرف ماذا يفعل، ولم يستطع أن يلتقم بعضها.

نهضت وأحضرت له كأسا من البيرة التي صنعتها ليوم السبت. شربها، وتراجع ثم جلس ينقل نظرات عينيه بيننا، أنا وإيما.

قالت:

«لماذا لا تأكل؟»

وأخذ يأكل ببطء، فقالت:

«ماذا أصابك؟!»

نهض وتثاءب مرارا، كاشفا عن أسنانه البنية الشعثاء، التي ذكرتني بقرد كبير في حديقة حيوانات جوهانسبرغ، رأيته حين ذهبت إليها مع المدرسة.

ذهب إلى الغرفة الأخرى، حيث ينام هو وإيما، ثم عاد حاملا غليونه. ملأه بعناية، كما يفعل الفقراء.. رأيت بعد فترة، حين ذهبت إلى العمل في محطة الوقود، كيف يحشو الرجال البيض غلايينهم.. رأيتهم يعبئونها بالتبغ وينتزعون منه ما لا يروق منظره لهم، ويلقون بعلبة التبغ نصف مغلقة في جيب السيارة.

قالت إيما :

«أنا ذاهبة إلى سيلا. أستطيع الذهاب مع ويلي، في طريقه إلى العمل، إذا كنت لا تريد المجيء».

- «لا ، ليس هذه الليلة. ابقي هنا».

يتحدث جوسياس هكذا بالعبارات القصيرة لمدير مدرسة، أو رب عمل. ولكنك إذا سمعت أسلوبه في الحديث، تدرك أنه لا يصدر أوامر على الاطلاق، ولكنه يطلب فقط.

أجابت إيما، بصوت امرأة تملك قرارها في الأمور الصغيرة:

«لا، لقد أخبرتها أنني سآتي».

- «غدا» وعاد إلى التثاؤب مرة أخرى، وهو ينظر إلينا بعينين رطبتين.

قالت إيما:

«اذهب ونم . لن أتأخر».

- «لا، لا! أريد..» وتثاءب بصوت عال «عندما يذهب» وأشار بغليونه نحوي، «سأخبرك فيما بعد».

ضحكت إيما وهي تقول:

- «ما الذي يمكن أن تخبرني به ولا يكون لويلي سماعه؟!»

أقمت معهما منذ تزوجا، وكانت إيما هي التي ترعاني، حتى قبل ذلك، حين كنت ما أزال صبيا، وكان من الطبيعي أن نشترك معا في ما يحدث لأحدنا.

نظر إلي.. وأظن أنه رأى أنني أصبحت رجلا الآن. كنت أرتدي «الأوفرول» الذي يحمل علامة «شل» على الجيب وأماكن أخرى. قال:

«يريدون مني أن أفعل شيئا.. شيئا يتعلق بالشاحنة..».

اعتاد جوسياس على حضور الاجتماعات السياسية بانتظام وشـــارك في احتجاجات قليلة، قبل أن يتحول كل شيء إلى العمل السري. ولكنه لم يزد عن كونه فردا من الجمهور.. كانت لدينا صور لمانديلا (1)، وبقـية القادة، مقطوعة من الصحف، ومعلقة عـلى الجـدار. ولـكنه لم يعـرف أيا من أولئك القـادة بصـورة شخصية.

كـان له صـــديقان هما ندلوفا وسيب ماسيندي، قالا بأنهما انضما للعـمل السري. وكانا يأتيان بين الحين والآخر. في وقت مـتأخر من الليل لتناول وجبة طعام، أو النوم في فراشي بضع ساعات .

قال جوسياس:

«يريدون اعتراض الشاحنة في الطريق».

– «اعتراضـها؟!»

انتفضت إيما كأنها غمست في مياه باردة ومظلمة، وتغوص أكثر مع كل كلمة تسمعها. قالت:

– «ولكن، كـيف يمكنك فـعل ذلك؟ ومـتى؟ أين سـيقومون بهذا؟»

بدت إيما شرسة، وكأنها ستخرج من فورها لتمنع حدوث أي شيء.

شـعـرت أن ذلك الماء البـارد يصـعد إلى بطن إيما.. فقد كنا نحـمل الاحـســاس ذاته غالبا. ولكنني أثرت دون أن ينظر إلي جوسياس، ملاحظة لم تشر إليها إيما. قلت:

«هل يريدون اعتراضها مع طاقمها؟».

ولم يتفوها بكلمة . قلت:

«أية ضجة مدوية ستحدثها بعملك هذا يا رجل!»

وصمت قبل أن يطلب مني جوسياس أن أفعل.. قالت إيما:

- «وماذا ستفعل؟!» وظل فمها فاغرا.. وبعد أن سألت، ومطت شفتيها.. قال:

«سيخبرونني بكل شيء.. علي فقط، أن أرشدهم إلى أفضل مكان على الطريق، وهو طريق (فري ستيت).. سيكون الآخرون مشغولين تماما.. و.. وعندما نجتاز..».

- «ستموت!»

كان رأس إيما يرتج، وجسدها يرتعش. لم أر مطلقا، أحدا في مثل تلك الحالة.. كأنه مات بالفعل بالنسبة لها. رأت ذلك بعينيها.. وأخذت ترفسه وتصرخ دون أن تعرف كيف تبدي له ما ترى.. كانت تبدو كأنها تريد قتل جوسياس بنفسها بسبب موته.. قالت:

- «هذه هي النهاية بالتأكيد. توجد بندقية الرجل الأبيض الذي يجلس في المقدمة.. أليس كذلك؟! أنت أخبرتني.. والآخر الذي معه؟ سيقتلانك.. سوف تذهب إلى السجن. سيأخذونك إلى سجن بريتوريا ويعلقونك بالحبل.. نعم معه بندقية.. أنت قلت لي.. ألم تقل لي؟! لقد قلت لي هذا مرات كثيرة».

قال:

«وهم أيضا يحملون بنادق.. كيف تظنين أنهم سوف

يوقفوننا؟! معهم بنادق، وسيحاصرونه كلهم.. كل شيء مدروس».

ردت إيما وهي تجلس وتنهض وتدور حول نفسها، بحيث تخيلت أنها ستطيح بالجدران، التي لا ينقص مثلما في بلدة «الكسندرا» أن يدفعها أحد :

- «سيقتلك الرجل الجالس في المقدمة.. أعرف ذلك، ولا تحاول اقناعي، فأنا أعرف ما أقول..».

خشيت عليها.. لم أخشَ رد فعل إذا وقفت أنا أو جوسياس في طريقها، ولكن مما قد يحدث لها، فقد تنفجر منهارة أو تصاب بنوبة صراخ لا يستطيع أحد منا نسيانها.

لا أعتقد أن جوسياس كان على استعداد للقيام بهذا العمل في السابق. ولكنه يريد أن يفعل الآن. قال:

«لا إطلاق نار.. لن يطلق أحد النار علي. ولن يدري أحد أني أعرف شيئا.. لن يقول أحد أي شيء.. سوف أحتجز مثل الآخرين تماما! مثل الرجل الأبيض الجالس في المقدمة، بالضبط! من سيطلق النار علي؟ هل يقتلونني لهذا؟!»

قالت إيما:

- «يمكن أن يذهب غيرك.. لا أريدها، هل تسمع، ستبقى في البيت، وسأقول انك مريض.. ستقتل.. سيطلقون الرصاص عليك.. جوسياس، انني أخبرك: لا أريد.. ولن..».

كنت أنتظر فرصتي للحديث، طيلة الوقت، وشعرت أن جوسياس كان ينتظر لكي يتحدث إلى إنسان ما يفهم الأمر.

قلت، بينما هي لاتزال مستمرة في الكلام:

«ولكن توجد بعض السيارات، حتى على تلك الطريق».

قال:

«ستوضع حواجز. حصلوا على الاشارات التي توضع على الطرق، وتراها حين تكون هناك حفريات في الشوارع. سوف يكون هناك أيضا بعض الرجال معهم فؤوس ومعدات حفر.

وعندما تمر الشاحنة سيغلقون الطريق فتتحول السيارات الأخرى إلى الطريق القديمة المارة بكالمنسدريف.. وسيحدث الشيء ذاته في الجانب الآخر من الطريق، على بعد ميلين.. فهناك الطرق الزراعية المؤدية إلى نيك هولت».

«بحق الجحيم يا رجل! هل يجب أن تختار هذا الجزء من الطريق؟!»

قال:

«أعرفه مثل هذه الساحة، أليس كذلك؟»

وقفت إيما بيننا، بينما كنا نناقش تفاصيل العملية. لم نخش أن يسمعنا أحد، ليس فقط لأن إيما أحاطت شباك المطبخ بالأسلاك، بل أيضا، لأن الفناء الذي كان البيت فيه يعتبر نموذجا حقيقياً لحال بلدة «الكسندرا» فهو مليء بأطفال يبكون وأناس يصيحون ليلا ونهارا.. عدا عن أجهزة «الترانزستور» التي تأتي أصواتها من جميع المنازل المحيطة.

كانت إيما تنظر إلينا طيلة المدة، ولاحظت بطرف عيني، أنها كانت تلهث داخل ملابسها، مجهدة، قلت:

«إذن سوف يوثقونك مثل الآخرين».

أجابني بجذب غليونه.

وقفنا نفكر لحظة، ونحملق في بعضنا.. كانت هذه المرة الأولى التي يحدث هذا مع جوسياس.

جمعت إيما الصحون من أمامنا، وغسلتها في إناء الماء الساخن الموجود على الموقد. قلت إنني سآخذ عطلتي يوم الأربعاء، وانني أعتقد أن العملية ستتم الأسبوع المقبل.. وفجأة، عادت إلى الحديث بنبرة مختلفة تماما. قال جوسياس إنه لا يعرف موعد التنفيذ، وأكملت:

– «حسنا، يجب أن أعرف لأنني أظن أنه يجب علي البقاء في البيت..».

وسألها جوسياس:

«ولماذا يجب أن تبقي في البيت؟» وأجابت، وهي تنظر إلينا دون أن تحاول أن ترانا:

– «لا أريد أن تتحدث الشرطة معه حين تحضر إلى هنا».

ضحكت، وهز جوسياس رأسه ليبعد عنها هذه الفكرة، ولكنها استطردت:

– «وأريد أن أعرف ماذا يجب أن أقول».

«ماذا تقولين؟ لماذا؟ بامكانهم استجوابي مباشرة، عندما يجدوننا موثقين بالحبال. وسأعود إلى هنا في الليل بنفسي».

قالت: «نعم ، فهمت!»

قالت ذلك، وهي تسكب في القدر ما تبقى من صحن الذرة، التي لم يكمل جوسياس أكلها، كانت تريد أن تظهر لنا بأن لاشيء سوف يُعطل بانتظار ذلك الشيء العظيم.. فعليها أن تغسل الصحون وتنثر الرماد فوق النار.. قالت:

– «نعم، ستعود.. هل ستمضي الليل كله هنا يا ويلي؟ نعم سترجع بالتأكيد!»

وأخال أن جوسياس رأى نفسه للحظة، ميتا أيضا.. لم يرد حين رفعت قبعتي عند الباب وقلت: نراكم!

* * *

استطعت أن أخمن بأن العملية ستتم يوم اثنين.. وخطر في ذهني أن النساء لا يتذكرن أشياء عادية كهذه، ولا أعرف بماذا يفكرن! فلم تكتشف إيما مثلا، أن الأمر يجب أن يحدث يوم الاثنين المقبل أو الذي يليه، أو يوم اثنين ما بالتأكيد.. فالاثنين هو يوم خروج جوسياس مع الشاحنة إلى مناجم «فري ستيت».

أخبرنا بما ينوي يوم الجمعة. أمضيت يوم السبت كله في رعب بأن العملية ستتم يوم الاثنين التالي، وقد ينتهي كل شيء قبل أن أستطيع .. ماذا؟! يا إلهي لا أدري!!..

أحسست أن من الواجب أن أعرف على الأقل، مكان ما سيحدث. ركبت دراجتي الهوائية يوم الأحد، وقدتها نحو البلدة قبل أن ينزل أحد إلى الشوارع، وذهبت إلى المحطة الكبرى. اكتشفت أنه لا يوجد قطار يوم الأحد، يمكن أن يصل إلى هناك، وأن أقرب مسافة يمكن أن يصلها القطار إلى المنطقة،

تبعد عنها حوالي ثلاثين ميلا، كان علي أن أضع دراجتي في قسم الأمتعة، وأدفع ثمن التذكرة أيضا. ولم يكن معي نقود لأنني أستلم أجرتي يوم الجمعة. غادرت المحطة واتجهت إلى أقرب منعطف نحو «كالمنسدريف»، وسألت أناسا هناك، عن أفضل الطرق للوصول إليها.

كانت رحلة طويلة وشاقة، استغرقت أكثر من ساعتين.. وصلت عند الطريق الرئيسية من الطريق الرملية، حيث أخبرني جوسياس عنها... كانت كما قال تماما.. رأيت لافتة معدنية تشير إلى «كالمنسدريف» من الطريق التي أتيت عبرها، وأمامها تمتد مستقيمة طريق زرقاء حديثة الاسفلت..

هل كنت سعيدا بالوصول إلى المكان؟! لم أكن قد أعرت اهتماما في السابق، للنظر إلى مشهد الريف.. ولكنني نظرت ورأيت كل شيء، بينما كنت أسير وأنا أتفصد عرقا.. وأنا الآن أفكر بذلك المشهد، وبالعودة للنظر إليه مرة أخرى.. المرج هناك منبسط وواسع ومستدير، والفترة أواخر الشتاء، والعشب جاف.. وفي البعد السحيق، تنتصب تلة وأخرى وسط لاشيء.. وردية اللون ومبتورة، من أعلى كعنق زجاجة.

قدت دراجتي، باتجاهها أكثر، ولكن تلك التلال لم تقترب أبدا، ولم تصبح بجانب الطريق.. كانت تبدو خالية، والسماء أضخم من الأرض، بكثير. وكان هناك بعض الاشخاص.. المضحك أنك لا تلحظهم هنا، كما تراهم في البلدة. كان الذين رأيتهم من أناسنا، وكانت هناك جدران من الاسلاك الشائكة، مما يفصح بأن الأرض تابعة لمزرعة رجل أبيض. رأيت رجالا ونساء من أناسنا، بعيدين عن الشارع متفرقين إلى أعمالهم

خـارج أكواخهم دون اكتراث بما يجري بالقرب من الطريق، في حين كـان الأطفـال يسرعـون إلى الشـارع كلما مرت أو توقفت سيارة..

ولكنني رأيت أيضـا، أناسـا يعـيـشون بشكل أفضل، قرب الطريق.. مـاذا سـيـفـعل هؤلاء حين يرون شـاحنة ديناميت تحـتـجـز وقتالا مندلعا..؟ (تخيلت أن الأمر سيحدث كما كنت أرى في أفـلام «الـوسـترن»(2) رغـم أنـنـي رأيـت الـكثير من الاشـتـبـاكات بين عصابات المنطقة والسكارى. انتابني شعور بالخجل لانني لم أستطع نسيان أفلام «الوسترن» الصبيانية في لحظة كهذه).

هـل سـيـجـري هؤلاء لابلاغ المزارع الأبيض؟ أم أن أحـدا منهم سـينطلق على دراجة هوائية لابلاغ الشرطة؟ وإذا لم تكن هناك دراجـة، مـاذا عن الـحـصـان؟ لقـد رأيت أحدهم يمتطي صهوة حصان..

قـدت الدراجـة ببطء إلى المنعطف التـالي، الذي تتـفـرع عنه طريق زراعية تـؤدي إلى «نيك هولت». كـانت كما وصـفـهـا جـوسـيـاس.. وهنا كان سيوضع الحاجز. ولكنه حين وصف المنطقة لم يتطرق إلى مـا فـيها! لم يتحدث عن أناس أو منازل وسـهل محاط بالتلال! يبدو أن الأمر كان مجرد فكرة نمت في رؤوسهم، وكفى!

فعلى طول الطريق هناك حياة واضحة: أناس يشعلون النار ويطبـخـون.. صـوت راع يصـيح بقطيع أغنامه القذرة.. طائر كـبير، لم أر مـثله في البلدة، يتأرجح أمـامي على أسلاك الجدار الشـائكة..

طار هاربا حين نزلت عن دراجتي.

جلست قليلا على جانب الطريق. كنت تناولت شرابا باردا في دكـان هندي في القـرية ولكن فمي كان جافا وأراهن أن كميات كبيرة من الماء نزفت من جلدي.

عـدت إلى الطريق بحـثا عن المكان المحدد الذي سأختاره لو كنت مكان جـوسياس. رأيت فسحة منبسطة من الأرض عليها كراك(3) واحـدة مكونة من بيتين، يقعان خلف الطريق مباشرة. وكـانت هناك فـجـوة عميقة وبعض الأشجار العتيقة.. ولاشيء يذكـر، مما قد يستطيع الرجال التستر خلفه. نزلت عن الدراجة مرة أخرى، وتفحصت المكان جيدا بعيني.

تسـاءلت في داخلي عن أولئك الناس الذين يقـيـمون هناك.. أعلى التل. لا أدري، لماذا وجـدتني أريد مـعرفة تفاصيل عنهم، وكأنني أنوي الاقـامـة بينهم، أو شيء من هذا القـبـيل.. تركت الدراجـة عند حـافة الطريق وعبرت الشارع بعد مرور سيارة «كـاديلاك» مسرعـة مـثيرة خلفها سحابة من الغبار، وصعدت التل إلى البيتين.

أعـرف أن مـعظم شعبنا يعيشون في السهول هكذا، ولكنني لم أدخل مثل هذه البيوت في السابق.. ولدت في منطقة (لا اذكر اسـمـهـا ويجب أن أسأل إيما عنهـا يوما ما) وعشت مع إيما في«مـوروكـا» عـند جـدتي. كـانت أمي تعـمل في البلدة وتأتي لزيارتنا أحيانا، ولكننا لم نر أبانا.. تعتقد إيما أننا لسنا من أب واحـد. فـهي تذكـر رجـلا قـبل أن أولد ولم تره ثانيـة، بعـد ولادتي.. لا أذكـر في الحـقيقة، أحدا، منذ كنت صبيا، باستثناء إيما..

كانت إيما تجرني بسرعة تجعل ذراعي تكاد تنخلع عن جسدي، حين نوشك أن نقع في قبضة الهندي، الذي كنا نسرق الخوخ والدراق من سيارته «اللوري».. وكنا نفعل ذلك كل يوم.

أقمنا مع جدتي في غرفة واحدة، ضمن بيت من الصفيح كان يقيم فيه آخرون.. وقد وضعت أنوار كهربائية في الشوارع بعد فترة طويلة.

تشبه المنازل المبنية من الطين، التي اقترب منها، البيوت الصفيحية التي عشت فيها. فهناك روث البقر الجاف، المكدس بارتفاع يماثل طولي، والصفائح القديمة وأشياء مكسورة جمعت من مخلفات وقمامة البيض.. فرت دجاجات حول قدمي حين اقتربت منها، وقطع كهلان حديثهما، لدى رؤيتهما لي، اكتفيا بترديد كلمة: آهـ. آهـ. حييتهما كما يُحيّا الكبار وهزا رأسيهما مرددين الهمهمة ذاتها.

كان أحدهما يرتدي بنطلونا نظيفا ويجلس على الأرض، بينما يجلس الآخر على ظهر مقعد، يبدو أنه اقتلع من بقايا سيارة قديمة. وكان يرتدي لباسا لم أر مثله منذ أيام صباي، كما أعتقد: بدلة سوداء ذات بنطلون واسع جدا، وحذاء برباط، وياقة بيضاء منشاة، وربطة عنق سوداء.. وفوق كل ذلك قبعة قديمة مهلهلة.

كان اليوم «أحداً» وأظن أنه كان يرتدي أفضل ملابسه.. كنت سمعت أن الرجال الذين يعملون في المزارع يرتدون سترا قصيرة فضفاضة.

لم يسألني الرجلان الكهلان عما أريد، واكتفيا بالتحديق بي، بعيون تلاشى البريق منها... ولم أقل شيئا، لأنني لم أعرف ماذا يجب أن أقول، فتخطيتهما.. خرج صبي مسرعا كالصرصور من باب مظلم.. ظننت أنه لا يوجد أحد في البيت، لأنه يوم الأحد. ولكنني سمعت صوتا ينادي من داخل البيت الآخر. ولما لم يرد الطفل، نادى الصوت ثانية وخرجت من الباب امرأة.

قلت ان الهواء تسرب من «دولاب» دراجتي. وانني أرجو الحصول على بعض الماء.

دخلت إلى البيت وقالت شيئا، فخرجت خلفها فتاة في الخامسة عشرة تحمل صفيحة «بارافين» وذهبت لاحضار الماء وفعلت كغيرها من الفتيات في سنها اللواتي لا ينظرن إليك أبدا.. كانت محشوة داخل ملابسها القديمة القبيحة، وتتعثر مرتبكة وهي تسرع مبتعدة.. وما عدا ذلك فقد كانت فتاة جميلة، كأي فتاة أخرى.. ولحق بها الصبي وهو يصيح ويسير مباعدا ساقيه كالمقص فوق الحجارة، وأخذ يعابثها فزجرته وهشته بالصفيحة.. تذكرت إيما وما كنا نفعله في صبانا، في غفلة من الجدة العجوز.

خرج من البيت رجل، تصرف بود.. كان شعره أشعث مغبرا، وبدا أنه نام في حالة سكر.. وكان واضحا أنه لا يزال متأثرا بحالته . سألني:

«هل أنت قادم من جوبورغ؟»

لم أشأ أن أستدرج بإهمالي، فيؤاخذني جوسياس.

قلت:

«من فيرنيغنغ».

لابد أنه رأى في كـلامي شـيئا مـضـحكا. فـلا أحد يرتدي مـلابس شـبـيهة بأبناء «جوبورغ»، الذين يمكنك تمييزهم على بعد ميل. ولكنه لم يعلق.

وقف أمامي يحاول ابقاء عينيه مفتوحتين. وسأل:

– «ألا تستطيع إيجاد عمل لي حيث تعمل؟»

–«أي نوع من العمل؟»

حرك يده باعجاب:

– «لديك عمل جيد!»

قلت:

«لا بأس!»

قال:

«ماذا تعمل حاليا؟»

وأجبت:

«في بستان»

لم يقتنع، وهز رأسه وهو يقول:

– «تبدو وكأنك تعمل في البلدة».

فـوجئت بالمرأة تناولني علبـة من البيرة، أقعيت على الأرض لشربها. من السخف القول إن بيتاً من الطين بيت جميل، ولكن الاسلوب الذي شكل به الطين جميل.. فـيـبـدو أن الطين شكل

حين كان طريا بواسطة حجر مسنون أو عصا. بأشكال أوراق الاشـجـار ودوائر قمرية مخططة، بحيث يكون بعض فجواتها مـضاءة بأشعة الشمس، والبعض الآخر معتما.. وحين تتحرك من مكانك يعتم الجزء المضاء، ويضاء الجزء المعتم..

عـادت الفـتـاة حـاملة على رأسها صفيحة الماء، التي جعلت عنقها غليظة ومكتظة.. شكرتهم فحياني الكهلان بنفس أسلوب الاه... ورافـقـنـي الـرجل الآخـر بضع خطوات، وتركني وهو يقول:

– «لا فائدة! أذهب إلى العمل كل يوم من الخامسة صباحا.. والاجر ضئيل.. ضئيل جدا..»

* * *

كـيف كـرهت أن أكـون مـثله؟ رجـلا مـتزوجا وله طفلان كـبيران؟ يعـمل طيلة حياته في الحقول، مرتديا سترة قصيرة.. حين تفكر هكذا، بإنسـان تعتقد أنك لا تستطيع أبدا أن تكونه، فـإنـك تـظن أن العـيب فـيـه، ولا تفطن إلى أنك لم توضع في الظرف الذي ولد فيه.

وفي الوقت ذاته، غـمرني شعور مجنون، يدفعني إلى التفكير بأن أبلغه بشيء عظيم ورائع، ولم يحلم أبدا أنه قد يتحقق شيء يجعله يركع على ركـبتيه ليشكرني عليه... وددت أن أقول: عما قـريب سـوف تمتلك المزرعـة. ويكون لك حـذاء مثلي، وتخرج ابنتك الماء بطاحـونتك الهوائيـة. فـفي يوم الاثنين، أو اثنين ما غيره سـوف تتـوقف الشـاحنة، عند الأسفل ويحتجز طاقمها. ويفوز جوسياس وأنا وحتى أنت.. وإلى الأبد!!

ولكنني بدلا من ذلك وجدت نفسي أسأله:

«من فعل ذلك ببيتك؟»

لم يفهم ورسمت في ذهني شيئا.. قال دون اكتراث:

«المرأة»

هبطت إلى الطريق، وجلست برهة. ثم ألقيت بصفيحة الماء وانطلقت بالدراجة مبتعدا، دون أن أنظر ثانية إلى موقع «الكراك».

* * *

لم يكن ذلك الاثنين..

يذهب جوسياس وإيما إلى الفراش في وقت مبكر جدا.. وقد كانا نائمين، بالطبع، حين عدت متأخرا ليلة الأحد، ظنت إيما أنني كنت بصحبة بعض الشبان كعادتي خلال عطلات نهاية الاسبوع.

استيقظ جوسياس الساعة الرابعة والنصف صباحا، كما يفعل كل يوم اثنين لأن المسافة بين المكان الذي نسكنه، ومصنع الديناميت بعيدة. استيقظت أيضاً بمجرد خروجه من الغرفة رغم أنني لم أكن أصحو، حين كان في السابق، ويشعل النار في المطبخ. كنت جالسا ملتفا بالغطاء حين دخل إلى المطبخ. قلت:

«ذهبت إلى هناك أمس. ورأيت المنعطف وكل شيء.. عند الحفرة ، أليس كذلك؟ هل هو المكان الصحيح؟»

نظر إلي بعيني مصاب بالدوار، وأومأ برأسه إيجابا.. ثم قال:

«ماذا تقصد بذهابك؟»

قلت:

«استطعت أن أحزر بأن ذلك المكان هو المناسب.. صعدت إلى المنزل أيضا.. الناس الذين هناك لا بأس بهم.. ليسوا كثيرين حينما لا يكون الأحد، لا يكون هناك أناس سوى الرجل العجوز.. يوجد اثنان أظن أن أحدهما زائر فقط.. سيكون الرجل والمرأة في مكان ما بالحقول.. سيكونان بعيدين بالتأكيد لانك لا تستطيع رؤية أعواد الذرة من الطريق..».

شعرت أنه يصغي إلي بانتباه، وأنني أعرف تماما ما أتحدث عنه، وبكل وضوح رؤية. شرع في استجوابي، ولكنه عاملني وكأنني أكبر سنا وأكثر ذكاء منه، فلم يدر ما يقول.. شرب الشاي، بينما كنت أسرد عليه كل ما أعرف. كان يفكر. قال لي قبل أن يغادر.

«كان علي أن لا أخبرك!».

أسرعت في إثره، إلى الساحة. كان الظلام لا يزال ليلا مخيما. همست بعفوية مألوفة: ليس اليوم أليس كذلك؟. لم أستطع رؤية وجهه بوضوح لكنني لست أنه لا يعرف هل يجيب أم لا.

«ليس اليوم».

كنت فرحا، إلى حد أنني لم أستطع النوم ثانية.

اختلق جوسياس عذرا لكي يخرج معي مساء بعض الوقت.

قال:

«أخبرتهم أنك موثوق بك مئة في المئة، ويمكن اعتبار أنك تعرف مثلي تماما».

قلت: «لا يوجد فرق، بالطبع!»

كل ما في الأمر أنه لم تسنح لي فرص كثيرة لافعل أي شيء لأنني ما زلت صغيرا.. لم نشأ إبلاغ إيما.

سألته:

«إسأل عن الشبان الذين أعدوهم للعملية! هل عددهم كاف؟!»

زم كتفيه، وتابعت:

«أقصد، حتى الذين سيحملون الفؤوس والمجارف..؟»

لم يجب لكنني وجدت أنني أستطيع أن أسأل.

آه يا صاحبي! دعني القي نظرة فحسب، عند الطريق، وأنتم تقومون بعمليتكم!.

أدري أنه لم يحب ما حدث. فبمجرد أن عرفوا أنني أعلم وكنت هناك ورأيت، أصبحوا معنيين بالاستفادة مني.. هذا ما أعتقده على الأقل..

لم أذهب إطلاقا إلى الاجتماعات التي تم خلالها التخطيط للعملية... قابلت، قبل التنفيذ، شخصين كانا معي عند المنعطف في آخر الطريق وأخبرنا من قبل سيب ماسيندي بما علينا عمله.. لم نقل أنا أو جوسياس أي شيء لإيما.

قمنا بالعملية بعد ثلاثة أسابيع من ذلك اليوم. أؤكد لك أنه

مــهما حدث معي منذ ذلك التاريخ، فلن أنسى تلك اللحظة حين أشرنا للشــاحنة بالتوقف، وجوسياس جالس في مقعده الصغير في الخلف.. خطر لي أن أصرخ: جــوسياس! وأضحك بملء فمي في المرج.. لم أشــعر بالخوف! فما الذي يدعو إلى الخوف؟! لقد أمضى سنوات من عمره يجلس يوميا فوق شحنات الديناميت، فما الشاذ في الأمر؟!

كــانت لدينا صــفــيــحة فيها نار، مع دلو قطران، وإشارات حــقيقية تستخدم لاغلاق الطرق، وكان كل شيء يسير بسلاسة في جانبنا.

بدأت المشكلة عند «نيك هولت» حين مــرت دورية دراجــات عسكرية .

«يقول جوسياس انها المرة الأولى التي قابلتهم فيها دوريات على تلك الطريق، ذلك الوقت من النهار».

ارتابت الدورية بأمــر الحاجز المقام هناك.. أوقفت الشاحنة خــلال ذلك دون صعوبة، لكن النار أطلقت على أحدهم، وحاول جــوســياس انتزاع البندقية من يدي الرجل الابيض الجالس في المقــدمــة، واندلع جــحــيم من اطلاق الرصــاص، واضطروا إلى العــودة بطاقم الشــاحنة حــيث كنا نقف مــســتــخدمين سيارة وعــربة صــغيرة، بدلا من الاســتــيــلاء على الشاحنة واخفائها لتــفــريغ حمولتــها. بقيت نصف المجموعة عند الشاحنة لازالة معالم ما حدث ولم تستطع الشرطة اكتشافها.

اتســاءل حين أقرأ في الصحف عن انفجار وقع في الوطن، ما اذا كــان واحــدا من مخلفــات ما فعلنا... ألقي القبض على اثنين

من زمـلائنا، بعـد فترة وجـيـزة ونشرت تفـاصـيل كـثيرة في الصـحف فـيما بعـد، مع خطابات وأحـاديث رئيس «الشـعـبة الخاصة» عن (مؤامرة كبرى).

لكن جـوسـيـاس اسـتطاع الخـروج سـالما.. ركضنا نحن الغلمان الثـلاثة إلى المرج، حيث كانت دراجات هوائية مخبأة في انتظارنا. وصلنا إلى مكان طلب منا الذهاب إليـه في مـقـاطعـة «روسـتنبورغ» أمضينا أسبوعا هناك، ثم طلب منا المغادرة إلى «بشـوانالاند». لم يكن الوضـع سيئا. صحيح أنه لم يكن لدينا نقود في «روستنبورغ» لكن كان من السـهل قطف ثمار البرتقال والباوباو (4) عن الاشـجار.

بعـثت رسـالة الى إيما أخبرها انني بخير. لم يبـد حتى ذلك الوقت أنني لا أستطيع العودة إليها مرة أخرى.

امـا في «بشـوانالاند»، فـقد كان الأمر مختلفا. لم يكن لدينا نقـود، ولا تسـتطيع أن تقطف طعـامـا في ذلك المكان القاحل.. قالوا إنهم سيرسلون لنا نقوداً، لكنها لم تصل. كان جوسياس هناك أيضـا، فاستطعنا الصمود وشجع أحدنا الآخر.. ساعدنا اناس في التـخـفي مما مكننا من الاسـتـمرار، رغم عدم وجود نقـود مـعنا. كـان هناك كـثيرون مثلنا في البداية، قبل أن تأتي الـطـائرات ويرحل البـعض مع البـيض.. بدأنا رحلة الخـروج أخيرا، في أعالي «بشوانا لاند»، عبر شمال روديسيا(5) وصلنا إلى «مـبيا» على الحدود مع تنجانيقا(6) التي كـانت وجهتنا إليها.. كانت رحلة طويلة أمضينا شهورا لانجازها.

قـابـلـنـا شـابا أعطي بعض المال، واسـتطعنا إكمال المسير

بالباص. لا أحد يوجه أسئلة حين تكون إنسانا عاديا، وتمشي مثل الأفارقة كلهم، أو تركب الباصات التي لا يستخدمها البيض أبدا.. أما إذا كان لديك المال لاستئجار سيارة أو الوصول والدخول من المطار، فإنك تواجه كل الأشياء التي تقرأ عنها:

يعيدونك الى خارج الحدود.. يرفضون منحك تصريحا، وما شابه ذلك.. وصلنا إلى تنجانيقا أخيرا، وبلغنا «دار السلام» حيث طلب منا أن نذهب.

يوجد هنا معسكر للاجئين. يعطونك «شلن» أو اثنين في اليوم، إلى أن تجد عملا. لكن المعسكر خارج المدينة، ولذلك تركناه وأخذنا غرفة في مدينة الأكواخ والصفيح.. توجد بالطبع بعض المباني الجميلة ليست مثل جوهانسبرغ وديربان، يقيم فيها البيض الذين لا يزالون يسكنون هنا، أو الأفارقة من ذوي المناصب الحكومية الرفيعة.. وما يضاهيها.

يقيم في هذه البيوت أيضا، بعض زعمائنا اللاجئين هنا مثلنا ولديهم السيارات الكبيرة الفارهة.. الكل هنا يعرف أنهم رجال مهمون لا كما في الوطن حيث تكون مجرد قمامة لمثل هذه الاماكن، إذا كنت أسود!

الناس الذين أقمنا بينهم يعيشون حالة فقر مدقع، لذلك يصعب أن تعثر على عمل، لأنهم لا يجدون أعمالا كافية لانفسهم، لكنني استطعت العثور على وظيفة كاتب بسيطة، بينما لم يجد جوسياس عملا ثابتا.. لم يؤثر هذا الوضع علينا كثيرا، لأن إيما استطاعت الحضور والانضمام إلينا بعد خمسة أشهر، وصرنا، أنا وهي، نعمل ونحصل على النقود.

هـي تـعـمل ممرضــة، كما تعلم، وبدأت عـمليـة «أفـرقـة» الوظائف، فـاكتشفت الحكومة وجود نقص كبير في الممرضات. نالت إيما فـرصة القدوم ضمن مجموعة من الممرضات أرسلن من روديسيا وجنوب افريقيا. كنا محظوظين لأن من المستحيل أن يتـمكن الموجـودون هنا من احـضــار عــائلاتهم للانضمام إليـهم.. جـاءت في طائرة، دفعت الحكومة ثمن رحلتها، وجرى تصـويرها مع الفـتـيـات الاخريات عند سلم الطائرة، ونشرت الصورة في الصحيفة.

أخذناها، يوم وصولها، في جولة إلى الشاطىء حيث يستطيع الجـمـيع الاسـتـحمام، دون قيود ولتناول شراب بارد في أحد الفنادق (لم تدخل إيما فندقا قبل ذلك)

هـبـطنا الطريق المؤدية إلى الخليج والميناء، حـيث يمكن لكل إنســان أن يسير، ويشاهد السفن عن قرب، وهي تأتي وتغادر أو يرى الرجــال الذين فـيها يلوحون له بأيديهم.. كنا نصادف أشخاصا من أبناء الوطن يوقفونها ويسألونها عن الأخبار.

* * *

مضى على وصول إيما الآن ثلاث سنوات.. رحل جوسياس في مــهـمــة وبقـينا أنا وهي.. كانت الفكرة أن يتم دائما إرسال أشــخــاص للتدرب. البعض يذهب إلى أثيوبيا، أو البعض الآخر إلى الجزائر أو غيرها للتدرب على استخدام البنادق ثم العودة.

كـانت هذه بداية. من المفروض أن أذهب أيضا. لكن بعضنا ينتظرون منذ فترة طويلة.. أذهب حـاليـا إلى العـمل، وأمر بهذا المكان كل مـساء واشتري كأس بيرة حين تكون معي نقود. لا نزال أنا وإيما نسكن في الشــقــة التي انتـقلنا إليـها قبل رحيل

جوسياس. تقيم معنا في الغرفة الثانية ممرضتان أخريان تعملان في المستشفى إيما تعمل في المستشفى حتى الآن، لكنني لا أعرف كم سيطول الأمر.

تطلب مني، معظم الايام. منذ مغادرة جوسياس أن آتي لاصطحابها من المستشفى، حين تنتهي فترة عملها.. حين أصل إلى عتبة المستشفى تحت الأشجار، أراها واقفة تحدق في الفراغ وكأنني لن آتي أبدا.. يتكرر هذا المشهد كل يوم. تبتسم إيما فور أن تراني أو تظل على ذلك لحظة، إلى أن نسير ياردات قليلة، فيأخذ جسدها ينتفض وينبض حزنا، ثم تهطل الدموع من عينيها وهي تردد:

«لا يستطيع الانسان تحمل ذلك. لا يستطيع التحمل».

قالت، منذ البداية، ان المستشفيات هنا لا تشبه مستشفيات الوطن، حيث يجب أن تعرف كل ممرضة عملها. أوكل لها الاشراف على «عنبر» كامل للمرضى.. تقول ان العمل يزداد سوءاً، ولا تستطيع أن تثق بأي شخص ليقوم بأي عمل، وأنه يبدو أن الموظفين لا يحبون وجود غرباء بينهم.

تخبرني إيما بذلك، يوميا، وكأنها تسرده للمرة الأولى. طبيعي أن البعض لا يرغبون في وجودنا هنا. من السهل أن تفهم السبب فالناس لا يجدون أعمالا تكفيهم لكن الأمر لم يكن يشغلني كثيرا، فسأغادر يوما ما. وإلى أن يحين الموعد سأظل آكل لا أكثر.

الشقة جميلة، بالحمام الحقيقي الذي فيها، والكراسي الست التي اشتريناها، وأعجبت إيما كثيرا. لكن وجهها يصبح مرعبا

حين ندخل البيت.. وتراها تردد دائما أن الأمور لن تسير كما يجب في هذا المكان.. كان لدينا في الوطن، صنبور ماء واحد، في الساحة يستخدمه سكان المنازل كلها، لكنها لم تكن تشكو. هي لا تجلس الآن أكثر من دقيقة، دون أن تنهض متذمرة لا تستطيع اصطحابها الى الخارج لأن الطقس غير ملائم. ترفض مرافقتي حين أذهب للشراء من السوق، وتقول انها لا تحتمل الذهاب إليه.. كانت تحب السوق في البداية. حين سألتها عن السبب وقلت إنها يمكن أن تحصل هناك على خوخ بسعر زهيد.. قالت: لا أحب هذه الطماطم البائسة التي يزرعونها هنا، ولا أفهم اللغة التي يتصايح الناس بها في السوق.

أخذت تنام ليلا، نصف الفترة السابقة، وبدأت توقظني من النوم في الآونة الأخيرة. حدث ذلك ليلة أمس، أوقظتني ورأيتها واقفة في الظلام وهي تقول: أشعر بتعب.

قلت:

«سأصنع لك شايا» رغم معرفتي بعدم وجود ما يمكن للشاي عمله. قالت:

«من المؤكد أن بي شيئا. يجب أن أذهب غدا إلى الطبيب»

سألتها:

«أهي الآلام مرة أخرى، أم ماذا؟؟»

هزت رأسها ببطء، وبتصاعد جعلني أعرف أنها ستنفجر في نوبة بكاء أخرى.

(مكان لا أحد فيه، أنهض وأنظر من النافذة وكأنني نائمة

وفي حلم.. كل يوم كل يوم! لا أستطيع النهوض والتخلص مما أنا فيه! هذه المدينة أمامي دائماً).

من الطبيعي أن تكون الحياة قاسية بالنسبة لها. استطعت أن التقط بعض كلمات «السواحيلي» (7) التي تمكنني من تصريف أموري بشكل مقبول.. أقصد انني أستطيع أن اتحدث إلى أي شخص اشعر أنني أريد محادثته. لكنها لم تتعلم سوى كلمة «أحسنت» التقطتها بسهولة، ولم تعن شيئا بالنسة لها، سوى أنها نوع من الضجيج.. الذي تسمعه.

حين يأتي لزيارتي بعض الروديسيين الذين أعمل معهم أو أشخاص من أبناء الوطن. تجلس إيما ولا تستمع لأي حديث يدور إلى أن تتنهد بحسرة وتقول:

- «صعب.. صعب على امرأة وحيدة.. لا أصدقاء. لا أحد... لا تستطيع امرأة وحدها أن تحتمل.. صدقني!»

قلت لها الليلة الماضية:

«ستكون الأمور أكثر سوءا، لو أنك كنت في الوطن فلن تستطيعي رؤية جوسياس أو رؤيتي، لفترة طويلة».

قالت:

- «نعم ستكون سيئة.. ستكون هناك سيلا والآخرون وجموع العجزة في المستشفى.. لكن سيان، فسيكون الوضع سيئا.

هل تذكر كيف اعتدنا أن نذهب إلى (جوبورغ) أيام السبت في عطلتي؟ آه على أولئك الناس! كنت تخشى أن تضيع

وتفقدني حتى بعد أن صار عمرك اثني عشر عاما».

قلت:

«لم أكن أخاف. أنت التي كنت تخشين أن يلاحقك أحد!»

كانت إيما هي التي تخلصني من الورطة، حين كنا نسرق الفواكه، والحلويات من الدكاكين.. كانت تنقذني دائما... وكنت كما أعرفك دائما يا إيما.. لكنك الآن لست كالسابق!

ماذا يمكنني أن أفعل لك؟!

أعتقد أنها تريد العودة الآن، لا أشعر انها تعرف ما افكر فيه، حاليا، ولا أدري أيضا بماذا تفكر لكنها قالت:

– «تذهب أنت وهو وقد تعودان أو لا تعودان.. تعرفان ما يجب أن تفعلا.. ولكن ماذا تفعل امرأة؟ ماذا أفعل في حياتي؟ ماذا أفعل هنا؟! أي زمن هذا لامرأة؟!».

(مسكينة يا إيما! كم هي قاسية ظروفك!) تردد هذا الكلام دائما، ولا يضايقني أن أسمعه منها حين أصحبها من المستشفى، كما لا يزعجني الذهاب إلى السوق.. أخرج من البيت فور انتهائنا من تناول العشاء وأسير في الشوارع حيث يصبح الطقس أبرد في الظلام. لا أدري لماذا أخرج لكنني أنغمس داخل البيت في تفكير مرهق، يجعلني أسارع في التهام طعامي، دون أن تلحظني، وأغادر.. أشعر بحاجة ماسة للخروج، للتغيير وتجديد نشاطي. لا أمانع في أن أترك الطعام مقابل الخروج. فالكل يخرجون إلى الشوارع في المساء.

على العشب المزروع على طول الخليج ترى الهنود البدينين

يرتدون بدلات بيضاء، مع زوجاتهم اللائي يلبسن ملابس ملونة مضحكة، ترى رجالا وفتيات متشابكي الايدي. ترى الحراس كبار السن، نائمين، كالمتسولين، في مداخل الدكاكين المغلقة.

ترى أسفل الطريق وأعلاه، أناسا يمشون... يمشون فقط، يجرون قدما وراء أخرى.

يجب أن تخرج هذه المرأة لاستنشاق بعض الهواء في الليل.. إنه مكان عتيق، كما يقولون، لا أقصد المبنى، ولكن المكان.. يقولون ان السفن كانت تأتي إلى هنا قبل أن تصبح لندن بلدة، لقد أحبت إيما الخليج حين رأته لأول مرة. تنعكس أضواء السفن على رقعة واسعة من الماء، وتظل أشجار النخيل مرئية إلى ما بعد حلول الظلام.

أشم رائحة، منذ وصلنا إلى هنا قبل ثلاث سنوات، لا أعني رائحة مدينة الأكواخ، ولكن الرائحة المميزة لليالي الدافئة، يمكنك أن تشتم هذه الرائحة، حتى عند الساعة الثالثة صباحا.. شممتها، وأنا أقف أمام النافذة، مع إيما. تبلغ حرارة الطقس هنا في منتصف الليل مثيلتها في منتصف النهار، في الوطن. يبدو الأمر مضحكا حين تنظر إلى النجوم والظلمة.

(على أي حال، سوف أغادر قريبا. لن يطول الانتظار.. لقد ذهب جوسياس وعليك انتظار دورك لن ينسوك)

دار السلام. يا دار السلام!

أتسكع أحياناً مع شاب من أبناء الوطن، يقول لي أشياء تجعلني أضحك! يقول إن هؤلاء الحراس، الذين ينامون في

الداخل، يحضرون نسـاءهم معهم.. لم أر ذلك بنفسي. يقول لي أيضا اننا ذاهبان مع المجموعة التالية.

دار السـلام يا دار السـلام! أعـتـقد أنني سأقول لزوجتي يوما ما أنني أقمت هنا ثلاث سنوات.

مـشـيت ومـشيت كثيرا على طول الخليج، مرورا بالدكاكين والفنادق والكنيسة الالمانية والبنك الكبير، والشوارع الطينية..

كـان الظلام شديدا، وممتلئا بالأشكال السائرة حين مررت بأشعة ضوء منسلة من شقوق جدران يقيم أناس خلفها.

هوامش

(1) نيلسون مانديلا: أحد قادة حزب «المؤتمر الوطني الافريقي» التاريخيين أدخل سجون نظام جنوب افريقيا بتهمة القاء قنابل ومقاومة السلطة،وأفرج عنه في (11) شباط ـ فبراير 1990 بعد سجن استمر 27 سنة وستة أشهر وستة أيام وكان قد قضى أربع سنوات أخرى في السجن بين عامي 1952 - 1956 .

(2) الوسترن: أفلام السينما الأمريكية التي تركز على حياة الكاوبوي» .

(3) قرية أو وحدة اجتماعية تضم سكانا من مواطني جنوب افريقيا الاصليين .

(4) PAW PAW أو البباو : شجر ينمو أصلا في امريكا الشمالية، ذو زهر أرجواني اللون وينتج ثمرا أصفر يؤكل.

(5) روديسيا: الاسم القديم لزيمبابوي خلال فترة حكم الاقلية البيضاء واثناء الحكم البريطاني.

(6) الاقليم المتحد حاليا مع «زنجبار» ويشكلان معا دولة تنزانيا.

(7) السواحيلي: لغة مختلطة من العربية ولهجات افريقية. وهي سائدة في الساحل الشرقي غير العربي لافريقيا.

مدينة للأموات
مدينة للأحيـاء

تعـد الأيام، فـقط، عندمـا تكون في انتظار طفل أو تكون في السـجن، أمـا أنا.. فلدي طفل لكنني أعـد الأيام منذ مجيئه إلى البيت.

يمـتـد الشـارع المحـفور بين صفي البيوت، كقناة نهر غير مجراه.

لصـاحب الحـانة غير المرخـصة، الذي يقيم مقابلنا، سيارة تترنح وتتمايل وهي تخض نفسـهـا مـتـجـهـة نحـو البوابة الحـديدية. أمـا البـاقون كلهم بمن فيهم المترددون على صاحب الحانة، فيسـيرون على الحجارة والرمال وأخاديد المياه الجارية، في طريقـهم من البـيوت إلى محطة الباصات. ومن الصعب على

دراجة هوائية، أن تكون نافعة في البلدة.

يوفر البيت ما وضعه مخططو المساكن الاقتصادية في البلدة، وهو مكون من غرفتين ومطبخ وساحة خلفية صغيرة، يمكن أن تعتبر نموذجية لأسرة مثالية مكونة من أربعة أفراد. وقد هيىء البيت، ليكون كغيره من بيوت الشارع، لاستيعاب عدد أكبر من الأشخاص حسب الضرورة.. حوّل الكراج إلى غرفة «للمستأجرين من الباطن» (ربما يكون صاحب الحانة الذي يعرف كل شيء عن أي شخص الوحيد الذي لديه كراج.. والأرجح أن سائق سيارة أجرة كان يقيم هناك) يفتح الباب الأمامي للمنزل على غرفة تمت تجزئتها بستارة يميل لونها إلى الاخضرار، ولكنه شحب وبليت النقوش التي تزين الستارة، قبل احضارها من منزل آخر لتقسم الغرفة بها. تقع في احدى جانبي الستارة غرفة المعيشة، وليس فيهامن متسع إلا ما يكاد يستوعب كرسيا طويلا مغطى بالبلاستيك، وبجانبه كرسيان صغيران. وطاولة للقهوة عليها غطاء منسوج يدويا، وإناء للزهور مصنوع من الريش المصبوغ، وجهاز مذياع مع مسجل، ومكبران للصوت صنعا يدويا. على الجدار صورة ضخمة لحصان ذي عنق برتقالية الشعر، تطل فتحتا أنفه الكبيرتان. أرضية البيت من الاسمنت المصقول بمادة تلميع سوداء. يوجد السرير عند الجانب الآخر من الستارة، بجانب نافذة محصنة ضد اللصوص، وطاولة عليها قنديل وزجاجة تحتوي على حبوب لمعالجة الحموضة، وساعة منبهة.. تحت السرير صندوق يضم ملابس امرأة، وتتدلى بدلة رجل من كيس ثياب بلاستيكي، معلق بمسمار في الحائط.

يؤدي البـاب الذي لا يغلق أبدا من غرفة المعيشة إلى المطبخ. يوجـد هناك حـوض يعـتبر أيضـا حمام البـيت، وموقد يعمل بالفـحم المشتعل، مطلي بالكريم كأنه سيارة صنعت في سنوات الأربعـينيـات. وفي المطبخ أيضـا خـزانة للاطبـاق، يفتح باباها الزجـاجـيـان بصـعـوبة، وطاولة وكـراسي بلاستيكية. رائحة الطعـام لا تتـغير.. دقـيق الذرة المشـوية، والكاري المغلي الذي تتصاعد منه أبخرة بقايا الطعام الكريهة، والعصيدة الحامضة، والبصل.. وهناك أيضا ثلاجة غير موصلة بالكهرباء، تستخدم لتـخـزين «المارغرين»، والحليب المركز، ومعلبات سمك البلشار (الرنجة).. فلا توجد كهرباء.

للمطبخ باب مقفل دائما، نصفه العلوي من الزجاج البلوري الخـشن. تعزز ستارة معلقة خلف الزجاج البلوري خصوصية وعـزلة ساكني البيت، سامسون موريك الذي تقع غرفته خلف ذلك البـاب تشـاركه فيها زوجته وطفله وأي من أبنائه الكبار، الـذين قـد يأتون إلى البـيت، ويقـيم الاولاد مع أقـارب لهم في إحـدى قرى الريف، تتحول الأريكة إلى سرير لشخصين، عندما يأتي الاولاد جميـعـا مـعا وينام البعض أيضا على الارض، في المطبخ، ولكن الأريكة لا تكون مـتوفرة دائما. يضـم المنزل رقم 1907 بلوك «جـ» أحـد عشر شـخـصا. ويتحدد العدد الاجمالي للمقيمين حسب عدد من يأتون إليه ولا يكون لديهم مكان آخر يـذهبـون إليـه. يشـمل هذا العـدد كـذلك النزيلة المسـتأجـرة وعـشـاقها المتتالين ذوي السمعة الحسنة الذين يترددون عليها خلف الستارة الخضراء المطرزة.

وضع سـامسون موريك المسجل باسمه البيت 1907 بلوك

«جـ» أعـمـدة وأسـلاكـا لحـجـز الدجاج، وزرع أشجار عنب «الكاتاوبا»، التي تشكل عـريشـا جميـلا خـلال الصيف. تحت الاشـجـار ثلاثة كـراسي وطاولة لعب، عليها بقايا طلاء ابيض. والطاولة كـالسـتارة الخضراء المطرزة أو صورة الحصان ذي الشـعـر البرتقـالي، والأعـمدة والأسلاك من مخلفات أشخاص مـتعددين عمل موريك لديهم في المدينة كبستاني غير مقيم. يقع العـريش بين الكراج والمرحاض الذي يشترك في استخدامه كل من في المنزل من مالكين ومستأجرين.

اعـتـاد مـوريك، أيام الأحـد، الجلوس تحت عـريش العنب، وشرب زجـاجـة من البيرة يشتريها من حـانة غير شرعية عبر الشـارع. يجلس مـوريك هناك خـلال الشـتاء أيضا، فالطقس تحت العريش نهارا، أكثر دفئا من البيت.

لا توجـد في المنزل حـيـاة خـاصـة حـقيقية، على الرغم من وجود كلب كبير أصفر اللون، مربوط في الفناء الخلفي.

تـسـتـخـدم الـعـائلة في الكراج ثلاجـة تدار بمـولد يعـمل «بالبرافين» مليئة بعلب المشروبات الخفيفة والألبان.

وتبيع العائلة هذه الاشياء فيستفيد من خدماتها المقيمون في الجـوار، وتـوفـر لهـا مـصـدرا لـلدخل، أمـا البـاب المعـدني «السـحـاب»، الذي يغلق «الكراج» فإن رتاجـه مـفـتوح دائما. ويأتي الاطفال أيام الاحد للشراء، ويقرعون باب المطبخ القديم، الذي جلبه موريك من المدينة، ووضـعه عند جدار «الكراج».

ولا يمكن، بأي حـال، أن يكون لبـيت خـصـوصية، وقبالته، عـبر الـشـارع، حـانـة.. يـتـسـكـع السكارى في الطريق المليء

بالأخاديد الصغيرة، التي تجعلهم يترنحون في مشيتهم حتى إذا بدا أنهم اقتصدوا في احتساء الخمور.. ولا يعير الأطفال الذين يلعبون في الطريق انتباها لاؤلئك الرجال الذين أسرفوا في الشراب فراحوا يخلطون بين الغناء والنقاش المحتدم، ويتحدثون إلى أناس ليسوا موجودين في المكان.

يأتي إلى منزل موريك أصدقاؤه وأقاربه، ومعارفه أيضا، الذين تعرف بهم في الحي، أو أثناء تنقلاته في الباص بين البيت والعمل... يخرج هؤلاء من الحانة الرخيصة، فإذا هم في فناء المنزل.. اعتاد موريك أن يوفر نقودا ليشتري الصحيفة يوم الأحد. لكنه يضطر إلى طي صحيفته والانصراف إلى الحديث، بدلا من القراءة. يجلب الضيوف معهم عادة، ربع جالون أو نصف جالون من الشراب (في الحانة ثلاجة من الحجم المستعمل في المطاعم، تعمل بالبرافين أيضا).

يثير ضحك الحضور نباح الكلب.. يعبث أحدهم بمذياع «ترانزستور».. تمتلئ الكراسي، ويتمدد بعض القادمين على العشب الخشن. يكون معظم الحضور، من الرجال عادة. لكن تأتي بعض النساء أيضا. خاصة من الشابات، اللواتي يذهبن معهم إلى الحانة، وهن نساء مهذبات ويتعاملن بلطف مع نانكي زوجة موريك، عندما يكون لديها الوقت للانضمام إلى الحضور، ويحملن غالبا طفلتها الخامسة، ممن أنجبتهم وبقوا على قيد الحياة، عندما تعود إلى المطبخ أو تنشغل بنشر الملابس المغسولة، على السور. تحتسي كأسا أو اثنتين من البيرة، لكنها لا تنخرط في الغنج والقهقهة، رغم أنها في بداية الثلاثينات من عمرها، وتعرف أنها لا تزال جميلة، ما عدا فقدان احدى

أسنانها الأمامية.. وتقنع بالجلوس مع الآخرين، طفلتها في حضنها بينما يقص زوجها عليهم نوادره وحكاياته، فيجعلهم يضحكون أو يتحدونه. فقد اكتسب وتعلم الكثير من قراءة الصحف.

كانت تجلس ذات يوم أحد في ساحة المنزل مع زوجها وأصدقائه. جاء ذلك اليوم ابن عمها برفقة اثنين من المتشردين الطفيليين. لم يجلبوا معهم بيرة، بل قدمت لهم. تبادلوا التحيات مع الحضور، لكن من يمكنه سماع الأسماء، وسط جلبة كتلك؟! غط أحد المتشردين في النوم على العشب.. كان صبيا ضخم الجثة ككيس منتفخ. كان وجه الآخر أصفر، أكثر شحوبا من جميع الموجودين وكان وجهه أيضا، نحيلا ومدببا «كالمالج»، وتنتشر البقع في بشرته، لاحظت نانكي أنه يضع قرطا من الذهب في إحدى أذنيه.. لم يكن لديه ما يقوله.. لكنه أخذ لاحقا «غيتار» أحدهم وراح يعزف لنفسه، مر به أحد المقيمين في الكراج، في طريقه إلى المرحاض، حاملا بيده لفافة ورق الحمام. توقف قليلا للتفرج أو الاستماع، لكن الآخرين كلهم كانوا يتحدثون بأصوات أعلى من أن تجعلهم يسمعون عزفه الخافت.

خرج موريك مع أصدقائه عندما غادروا، وعاد غير متأخر. كانت زوجته ذهبت إلى الفراش، وأخذت ترضع طفلتها، يغالبها النعاس، فهمت أن هناك شيئا ما، لأن موريك ظل واقفاً عند حافة السرير، لم يشرع في خلع ملابسه قال:

«صديق متيمبو»

وأشــار برأســه نحــو الجــانب الآخر من الباب ذي الواجهة الزجاج. قالت:

ماذا يريد في هذه الساعة؟

أجاب:

انا أحضرته، طلب متيمبو ذلك.

قالت:

لماذا؟

جلس مـوريك على حــافــة السرير وتحـدث بصـوت خفيض وهو ينظر إليها، وقال:

يحتاج إلى مكان يقيم فيه.

نهض مـوريك عن السرير وفــيه تساؤل لا يمكن أن يسأل. فــقـدت الطفلة الحلمــة، فـصـاحت بصوت عال، أرشدت نانكي فمها إلى الحلمة ثانية، وهي تقول:

«لماذا لا يمكنه الاقامة مع متيمبو؟ كان في وسعك أن ترفض طلب متيمبو»

قال:

«انه ابن عمك»»

اجابت:

«سأخبره بنفسي، إذاً، إذا كـان مـتـيـمبو في حاجة إلى مكان يؤويه، فيجب علي أن أقدم له المكان.. لكن لا يجب علي أن آوي كل الذين يجلبهم من الشارع».

تثـاءب الزوج كمن يتجشأ حيرة وضجرا، وعضلات وجهه

تتـقلص، وقف فـجأة وراح يلم أوراق صـــحـيفته المتناثرة على الأرض. طواها كيفما اتفق وحاول تليين تجعداتها . قالت:

ماذا قلت؟

لم يجب وخرج من الغرفة.. سمعت أصواتا في المطبخ، لكنها لم تسمع ما كان يقال.

فتح الباب ثانية، وصفقه خلفه وهو يقول:

«ليـست مسألة أبناء عمومة.. هذا الشخص في ورطة أنت لا تقـرئين الصـحف.. قـضية نسف مركز الشرطة.. هل تذكرين؟ الشـهـر الماضي.. لم يقـبـضـوا على الجـميع.. ليس في مصلحة متيميو ، أمنيا ابقاؤه عنده طويلا. يجب أن يتنقل باستمرار».

تقلص فكاها الناعمان، وتشنجا..

أكـد لها زوجـهـا مـرتبكا، أنها «أيام قليلة.. بضعة أيام ثم (هامسا) سيغادر البلاد».

* * *

«إنه لا يخلع ذلك القرط الذهبي حتى عندما ينام.. ينام على الأريكة ولم يحضر مـعـه غطاء أو منشـفـة.. لم يحضر شيئا، ويسـتـخـدم أشياءنا. لا أدري ماذا يعني القرط المثبت في أذنه. كنت أرى في طفولتي رجالا يأتون من الريف للعمل في المناجم، ويضعون أقراطا في آذانهم. لكنهم كانوا يضعون الأقراط في كل من الأذنين، أما هذا فـمن أبناء المدن.. إنه شـخص آخـر، يقرأ الصحف.. ويسوي عندما يستيقظ الأغطية التي أعطيتها له، ثم يقرأ الصحف طيلة اليوم. إنه لا يستطيع الخروج..»

أبلغ المقيمون في المنزل 1907 بلوك «جـ» أن الرجل ابن عم نـانـكـي، وأنه أتى للبـحث عن عـمل، وليس لديه مكان يؤويه فهناك أشخاص يعيشون هذه الحالة في كل مكان. ولا يستطيع أحد ممن لديهم بيوت يأوون إليها أن يقول «لا»، لشخص من أبناء الدم الواحـد.. يعرف الجميع ذلك. لم تنكر زوجة موريك قرابة الرجل لها. لكنها أرادت أن تعرف ما تقوله إذا سئلت عن اسـمـه. أجـاب الرجل على الفـور، ويده النحـيلة القـوية تعبث بعـصـبـيـة بقـرط الذهب الدائري كفتاة: شيسونكا! قولي لهم «شيسونكا»!

سـألت:

«والاسم الثاني؟»!

اجاب زوجها:

«يكفي هذا الاسم!»

لم يسـتخدم موريك وزوجته ذلك الاسم فيما بينهما. كانا يأتيـان على ذكـره بضـمير الغـائب «هو» أو «له»وكان موريك يخاطبـه بكلمـة «أخي» أما هي فكانت تخاطبه بـ «أنت». أجاب مـوريك على أسئلة لم يوجـهـها أحد. قال لزوجته أمام الرجل: مـاذا يعني «الدم الواحـد» في هذا المكان؟ إذا لم تكوني بيضاء، فأنت من الدم الواحد. هنا نظرت إليه باحترام، كما تفعل عندما يقرأ لها من صحيفته.

كـانت المرأة المستأجرة تعمل في «أحد مطاعم كنتاكي» لبيع الدجاج، في المدينة، وتمضي مثل موريك النهار كله خارج البيت، في عـملها، وكانت تذهب يوم الأحد إلى منزل أمها، حيث يعيش

أطفالها. ولم تعلم لذلك أن المدعو شيسونكا لا يغادر المنزل اطلاقا، للبحث عن عمل، أو أي سبب آخر، كان عشيقها يأتي إلى غرفتها ليشاركها الفراش فقط، ويخرج قبل ظهور خيوط النهار الأولى، للذهاب إلى عمله في المنطقة الصناعية المخصصة للبيض.. كانت المشكلة الوحيدة، العائلة المقيمة في «الكراج» فقد كان يتعين على الرجل أن يعبر الساحة للذهاب إلى المرحاض. وكان من المحتم أن تلاحظ زوجة وأم عامل التنظيف في مقصب المدينة، أن الرجل لا يخرج من البيت.. فكرت بذلك زوجة موريك، فأبلغت المرأة التي تسكن «الكراج»، أن ابن عمها مريض، وخرج للتو من المستشفى وقد أبدت العائلة اهتماما به كأنه موريك أو زوجته.

لم يكن لدى الاسرة المال الكافي لشراء اللحم كثيرا. لكن موريك اشترى يوم الثلاثاء «معلاقا» من الجزار القريب من محطة الباص، وجلس الرجل معهم للأكل كان موريك يحضر السجائر إلى البيت ويدفع الرجل له ثمنها. وكان واضحا أنه يحتاج إلى السجائر أكثر مما يحتاج الطعام. قال موريك لزوجته:

«لا تدعيه يخرج، ولا تسمحي له أبدا، بالذهاب لشراء السجائر، أو تناول المشروبات في حانة «راديب». اذهبي أنت إذا احتاج إلى أي شيء! اغلقي البيت ثم اذهبي!».

* * *

أغسل ملابسه مع ملابسنا، يحمل قميصه وكنزته علامات تجارية بلغة أخرى ويبدو أنها من بلاد أخرى.

الحروف مختلفة أيضا. أقدم الطعام إليه منتصف النهار،

داخل البيت، آكل مع طفلتي في الفناء. أبلغته أنه يستطيع العزف في الداخل إذا رغب.. يستمع إلى أشرطة سامسون. كيف استطيع الحيلولة دون قدوم شقيقتي إلى البيت؟ أخبرتها، حين رأته، أنه صديق سامسون.. صديق جديد.. تحب شقيقتي ذوي البشرة الناعمة.. لكن هذا يعني أن يلاحظ الناس الأمر. صعب جدا أن تخفي ذلك. لا يقول الرجل هذا، ولا يبدو خائفا. ستستره اللحية. لكن كم من الوقت يحتاج نمو اللحية؟

كم نحتاج من الوقت لكي يرحل..؟

* * *

تحادث الرجلان كل ليلة، طيلة ذلك الاسبوع، كانا يتحدثان في غرفة نوم موريك وزوجته، بدلا من الغرفة التي فيها الأريكة والمذياع والمسجل، إذا كانت المرأة المستأجرة موجودة في البيت، على الجانب الآخر من الستارة. كان يجلس الرجل على كرسي مطبخ جلبه موريك، فيما يتمدد صاحب البيت (موريك) فوق السرير واضعا وسادة خلف رقبته. كانت تظل الزوجة في المطبخ أحيانا، أو تأتي فتجلس وتضع الطفلة على السرير. كانت تستطيع رؤية وجه موريك، ومؤخرة رأس الرجل، خلال مرآة خزانة الثياب، وهما يتحادثان، كان شكل رأسه الذي يعلو عنقه النحيلة، يشبه الفطر المكسو بألياف سوداء. رأت في عمق الرأس بقعة خالية من الشعر، تبدو كمرض جلدي، أو أثر لجرح. كان يبدو بوجهه الأصفر، النحيل والقرط الذهبي وأذنيه المتحفزتين، كأنه لا يعلم أو لا يهتم بذلك التشوه الخلقي.

كانا يتحدثان عن الاشياء التي تهم موريك، والاجتماعات السياسية التي تعقد في الكنيسة للتمويه التي كان يقرأ تقارير عن فعالياتها، ولا يحضرها. ضحك الرجل وجادل موريك بصبر قال:

«ما الفائدة يا صاحبي إن لم تكن هناك؟ قف بقدميك حيث تقف أفكارك..! نعم اذهب وناطح برأسك إذا جاءت الأبقار الايرلندية(1)، لقد علمك الفتيان منذ العام 1976 (2) كيف تتصرف.. إنك تعرف..!».

رغب موريك أن يخبر الرجل برأيه في المجالس البلدية التي أنشأتها السلطات، واللجان الشعبية التي شكلت للرد عليها وكأنه وجد نفسه مع مروج رياضي، وأحب أن يدلي برأيه أمامه، في مباراة لكرة القدم قال:

«لا يعني مسؤولو هذه المجالس شيئا بالنسبة لي. هل تفهمني؟ إنهم يريدون لأنفسهم فقط مناصب كبيرة وسيارات جميلة. أنا رجل فقير ولن أملك سيارة أبدا.. لكنهم يقولون انهم سيجعلون هذه المنطقة مثل «جوهانسبرغ» البيضاء.. ربما تصغي الحكومة لهم.. يقولون انهم يستطيعون عمل ذلك.. اللجان؟! إنهم يقولون، مثلي، ان مسؤولي المجالس أولئك، لا يعنون أي شيء أيضا! لكن ما الذي يستطيعونه هم أنفسهم؟! إنهم يعرفون أن كل شيء هنا سيىء.. إنهم يتحدثون ويتطرقون إلى هذا الوضع، ويذهبون إلى السجن.. فما الفائدة إذن؟ ماذا يستطيعون أن يفعلوا؟»

لم يتحدث الرجل عما فعل.. كانت مسألة مركز الشرطة ماثلة في ذهنيهما، وموجودة في لسانيهما، لكنهما لم يتحدثا

عنها.

كان الرجل يبتسم لموريك، لما سمعه منه، وسمعه في السابق مرات عديدة، وقد لا يسمعه في المستقبل إلى الأبد .. قال: «مجلسكم! مجلس الدمى؟! لا توجد في هذا المكان كهرباء حتى في الغرف.. انك تحفر وتعد الحدائق الجميلة وتزرع الورود ذات الروائح الطيبة.. وكم من الأشخاص يتبرزون في ساحة زريبتك النتنة؟! كم تنال لقاء حفر الحدائق التي يملكها البيض؟ أخبرتني ماذا تجني «أعلى أجر»! عشرة راندات في اليوم. إنها تكاد لا تكفي لاستئجار هذا المكان. حتى هذا البيت ليس ملكا لك.. إنها لا تساوي الوحل الذي تجلبه على حذائك من الساحة..».

أفصح موريك عن بعض غضبه واستيائه.. قال:

«ارتفعت أجور الباصات الأسبوع الماضي. يقولون ان اجرة البيت سترتفع أيضا..».

قال الرجل:

«ما الذي يفعله لأجلك هؤلاء الدمى الخرس؟ انك تعلم هذا لكن اللجان تطلب منك أن لا تدفع تلك الأجرة لأنك لا تنال أجرا كافيا للعيش في «المدينة الجميلة» التي يعدك بها أولئك الكذابون، أليست هذه هي الحقيقة؟! أليست هي الحقيقة التي تعرفها؟ ألا تستمع إلى الذين يقولون الحق؟»

بدت على وجه زوجة موريك، لبعض الوقت، ملامح من ينتظر ليقاطع المتحدثين.. قالت:

«سأذهب إلى راديب إذا رغبتما واشتري زجاجة بيرة».

أشـــار الرجــلان برأســيــهما مــوافــقين. عد موريك النقود، وأعطاها لها قائلا:

«لا تدعي أحدا يأتي معك!»

اخذت زوجته النقود دون أن تنظر، وقالت:

«ليست حمقاء».

كـانت الطفلة نائمــة في السرير. أغلقت البـاب خلفها بهدوء. أضــاع الرجــلان خـيط الحديث لحظة، فعاد إليه موريك قائلا: «امرأة طيبة!».

* * *

نحن وحـدنا.. تبدو الطفلة قد أحبته.. لا أرضـعها من ثديي دائما.. أرضـعها أمس من الزجاجة، عندما كنت مشغولة بإعداد الفـحم. سألتــه عن أطفـاله فـاكتفى بالابتسام، وهز رأسه. لا أدري إذا كان يعني ذلك أن من السخف أن أسأل، لأن لدى كل انسان أطفالا.

قد يعني هذا أنه لا يعرف، أو يدعي عدم المعرفة.. إنه يفكر بنفـســه كـثيرا.. رجل شــاب ووسـيم، يضـع في أذنه قرطا من الذهب، ولديه العـديد من الصـديقـات اللواتي يمكنه أن ينجب أطفالا منهن..!.

* * *

لم يـتم التطرق إلى مــوضــوع مـركـز الشرطة، لكن الرجل أمـضـى إحـدى الليـالي يحدث مــوريك وزوجـتـه عن الأمـاكن الخارجية التي زارها. من المؤكد أن ذلك حدث قبل حادثة عنها.

مـركـز الشرطة. حدثها عن أقدم مدينة في القارة الأفريقية، التي بلغت من القـدم مـا جـعل فـيـها مدينة للأموات وأخرى للاحياء، ففيها مدينة كاملة من المقابر الشبيهة بالمنازل قال إن الدين في تلك المدينة يشـبه دين الهنود أصحاب الحوانيت هنا. ثم أخبرهما عن نوع آخر من البلدان عاش فيه.. بلد يوجد فيه الثلج طول نصف العـام أو أكـثر.. قال إن الظلمة في ذلك البلد تستمر حتى الساعة العاشرة صباحا، ثم تحل بدءا من الساعة الثالثة عصرا، وصف لهما الملابس التي أعطيت له لاتقاء البرد. وقـال: «مـا أطـيـب هـؤلاءالناس لا أسـتطيع أن أصف مـدى طيـبـتهم.. لا تستطيعون أن تصدقوا أن في الكون أناسا بيضاً من هذا الطراز.. لو أن شـعبنا ذهب إلى هناك، لحصل على كل مـا يريد.. إنهم يعطون الشيء بسـهولة.. لديهم متحف أيضا، في الريف، وسـفن أبحـر فيها شعبهم وطاف العالم كله منذ أكثر مـن ألـف سـنة، ربما جـاؤوا إلى هنا.. هذه الكنزة منهم.. إنها مليئة بالثقوب الآن..».

أعجب موريك بأسلوب حياكة الكنزة المصنوعة من الصوف وقال للرجل «ستصلحها لك».

كانت الزوجة راغبة في إصلاح الثقوب، لكنها مترددة وقلقة قالت:

«سأحـاول الحـصـول على الألوان ذاتها، لا أدري إن كنت أستطيع».

ابتسم الرجل مقدرا لطف مضيفيه، وقال:

«ليـست مـضطرة لازعاج نفسها بها. لن أحتاجها، على أي حال».

لم يـسـألـه أي منهما عن المكان الذي لن يحتـاج فـيـه إلى الكنزة، أو عن القارة التي يقع ذلك المكان فيها، أو متى سيذهب إليه.

عـاد الرجل إلى أريكتـه، فانصرف موريك الى قراءة صـحيفة جلبها من مطبخ الذين يعمل لديهم في المدينة، ظل ينحي أوراق الصـحـيفة قليلا، ويجول بعينيه في أرجاء الغرفة، ثم يعود إلى القراءة. كانت الطفلة قلقة، لكنه لم يعلق على عدم صمتها. قال:

«الأفضل أن لا تعرف الكثير عنه».

سألته زوجته، وهي تقلب الطفلة لتمددها على بطنها:

«لماذا؟»

كان وجهها البريء المواجه لوجهه يشبه مرآة لا يريد النظر إليـهـا. فـقـد كـان هو الذي شـجـع الرجل على الاسترسال في الحديث عن البلدان الاجنبية التي عاش فيها.

كـانت الظلال التي يشكلهـا المصباح تنتشر في أنحاء الغرفة بين الأثاث وعلى جسديهما، وتهدىء الطفلة.. قال:

«لكي لا يكون لدينا ما نقوله إذا.. استجوبونا..».

* * *

احضر معه شيئا .. مسدساً..

اخـذ يـدخل إلى المطبخ، ويسـاعـدني عندمـا أقـوم بغـسل الأواني.. دخـل هـذا الـصـبـاح، وغـمس يديه في الماء المشـبع بـالـصـابون، وشرع في التنظيف، دون أن يتكلم. كـانت أيدينا غـارقـة في الدهن والصابون.. لم أر أصابعه، لكنني كنت أحس

بها حين تصطدم بأصابعي، فرك القدر، ثم جففها لم أقل «شكرا»، فقد يشعر الرجل بالحرج إذا قيل له «شكرا» لقاء عمل ليس خاصا بالرجال.

نبقى في المطبخ دائما.. نبقى في المطبخ مع الطفلة معظم النهار.. لم يعد يجلس هناك، للاستماع إلى الأشرطة.. صرت أذهب فأزيد درجة الصوت في آلة التسجيل وأعود، لنسمعها ونحن في المطبخ.

* * *

أصبح شعر لحيته أكثر كثافة، حاول سامسون موريك العثور على متيمبو، لمعرفة خططه، لكن متيمبو لم يظهر ولم يستجب للرسائل، ولم يعثر عليه في أي من الاماكن التي فتش موريك فيها. اغتنم موريك فرصة خروج صاحبة البيت الذي كان يعمل فيه يوم الثلاثاء، واتصل بالهاتف، بمقر عمل متيمبو، فقيل له انه لا يسمح للعمال بتلقي مكالمات هاتفية.

أحضر موريك إلى البيت أرجل دجاج للحساء، وقطعة من لحم البقر. نضج التين أكثر مما يجب في أحد البساتين التي يعمل فأعطي بعض الثمار، لفها في صحيفة وأخذها إلى البيت أيضا.

سأله الرجل:

«متى تتوقع أن تسمع شيئا من متيمبو؟».

كان الرجل يقرأ ورقة الصحيفة التي بللها السائل المتسرب من حبات التين.. لم يسجن سامسون موريك، في السابق،

بشكل فعلي، استثناء بعض المرات قصيرة الأمد جزاء مخالفات عابرة. لكنه عرف من أناس أمضوا هناك فترات طويلة، أن المرء يحتاج في السجن إلى قراءة كل حرف من أي صحيفة يمكن أن تأتي من العالم الخارجي.

قال:

«لا بأس عليك.. لا يهم! وضعك، هنا، جيد، نستطيع تدبر أمورنا.. أعتقد أن متيمبو سيأتي نهاية هذا الأسبوع».

استبق الرجل الأمور، ففهم ان موريك يشير إلى عطلة نهاية الأسبوع، حيث يلتقي موريك وأصدقاؤه في الساحة يوم الأحد لشرب البيرة، التفت فجأة إلى موريك وزوجته، وهو يطوي الصحيفة القذرة سريعا، ويمسح يديه من آثار ما عليها.. استحال وجهه الأصفر النحيل إلى وجه دائري يكسوه الشعر الأسود، شبيه بوجه «الملك» في أوراق اللعب التي يلهو بها موريك مع أصدقائه.. وأخذت عيناه تلمعان لتضاهيا في البريق، القرط الذهبي في أذنه، كان قميصه المكوي جيدا، مفتوحا إلى النصف، ويبرز منه صدره ليبرز كل ما يتمتع به من هم في جيله من جاذبية، قال:

«اسمعا! يجب أن لا يأتي أحد إلى هنا! سبت أم أحد! لا أحد من أصدقائكما.. يجب أن تغلقا هذا البيت، وتبعداهم لا تدعا أحدا يأتي إلى هنا من الحانة، هذا ضروري!».

نظر موريك إلى الرجل ثم إلى زوجته، وعاد لينظر إلى الرجل ثانية أخرج نصف سعلة ونصف ضحكة، وعلق بالقول:

«لكن، كيف أفعل ذلك يا صاحبي؟ كيف أمنعهم؟ لا أستطيع

وضع قضبان على باب بيتي. هناك ساكنون آخرون في الكراج. إنهم يتعاملون بالبيع».

قال الرجل:

«ابق في الداخل.. هنا في البيت، واغلق الابواب.. يأتي إلى هذا المكان كثيرون. خلال عطلة نهاية الاسبوع، دعهم يظنون أنك لست موجودا».

ظل موريك مبتسما ومتعجبا، لا يدري ماذا يفعل. تساءل:

«وتلك التي هناك مع صديقها؟ ماذا ستظن؟»

أجابت زوجة موريك بسرعة:

«انها في بيت أمها».

بلورت خطة العمل سريعا، وعرف كل منهم دوره. قال موريك:

«جميل! الحمد لله على هذه الفكرة! قد يكون من المفيد أن أذهب الليلة إلى حانة راديب، وأقول انني لن أكون هنا يوم الأحد، وانني سأذهب يوم السبت لمشاهدة مباراة الكرة».

هزت زوجته رأسها معترضة وقالت:

«ليس الكرة سيأتي أصدقاؤك بعدها ويتحدثون عن المباراة».

صاح موريك ضاحكا، ثم توقف محرجا وهو يعكس تنفسه ليمنع تسرب مخاط من أنفه:

«صحيح.. رائعة يا «ماما»! سأقول إذن، اني ذاهب للمشاركة في جنازة بعيدة عن هنا».

ينظف مسدسه، بينما أقوم بصبغ الملابس.. لاحظت أنه في حاجة إلى قطعة أخرى من القماش، فأعطيتها له.

طلب بعض الزيت، فأخرجت زيت الطبخ من الخزانة، لكنني رأيت في وجهه أن ليس هذا ما يريد، ذهبت إلى «الكراج» واستعرت بعض الزيت من زوجة نشابا.

لا يظهر المسدس أبدا، عندما يكون سامسون في البيت، انه يعلم أنني أشاركه وحدي العلم بوجود المسدس معه.

سألته عما أصاب مؤخرة رأسه، فتحسس المكان تحت الشعر. كان يظن أن البقعة ليست ظاهرة. سأحضر له شيئا، مرهما، لعلاجها، إذا بقي عندنا حتى يوم الاثنين.

ربما شعر بالاستياء لانني تحدثت عنها..

لكنه كان جالساً في المطبخ يضحك مني، عندما عدت بالزيت، كأنني شابة. نسيت، وشعرت أنني صبية. لكنني لا أحب ذلك النمط من الوجوه.. الوجوه ذات البشرة الناعمة.. لا يستطيع المرء نسيان وجه كهذا... لن تستطيع القول إذا استجوبوك انك لا تذكر ماذا يشبه وجه كوجهه..

يحمل الطفلة كأنها تخصه.. بينما نحن في المطبخ معا.

* * *

لم يتحدث الرجلان في تلك الليلة. بدا أنه ليس هناك ما يقولانه قدمت لهما زوجة موريك وجبة الطعام قبل حلول الظلام، كما يفعل السجناء الذين يقدم لهم حساء الذرة قبل أن تقفل أبواب زنازين السجن.. ترك الثلاثة المطبخ واتجهوا إلى

غرفة موريك، حيث يمكن خلال الستارة رؤية أي ضوء آت من الخارج. أعطى موريك الرجل بعض صفحات الجريدة فقرأ فيها أخبارا خفيفة، إضافة إلى بعض النشرات الدعائية التي توزع في محلات «السوبر ماركت» قرأ نشرة حول «كيف تتعلم بنفسك بيع وثائق التأمين».

لم يكن في البيت «بيرة». كانت زوجة موريك تعرف طريقها في الظلام، نحو المطبخ. ذهبت وأحضرت زجاجة «الكوكاكولا» عن طاولة المطبخ، وصبت لنفسها كأسا. عرضت عليهما أن يشربا فرفض زوجها باشارة من يده، وكان الآخر مستنفد الطاقة فأشاح بيد خاملة. تناولت غطاء السرير الذي بدأت اعداده في السابق، في أوقات فراغها، بانتظار ولادة الطفل الخامس.. كان الشعاع ينعكس من القرط الذهبي المعلق في أذن الرجل.

سمعوا قرب الساعة العاشرة، طرقة على الباب الامامي. بنيت جدران هذا البيت، كغيره من البيوت الفقيرة، بمواد رخيصة تجعل صدى أي طرق لأي باب يتردد في المنزل كله. نهض الرجل ذو الوجه الأصفر المتحجر، دون أن يتحرك من مكانه، فتح موريك فمه وأنزل ساقيه سريعا عن السرير، وشرع في النهوض. لكن يد زوجته التي أمسكت بكتفه جعلته يتراجع إلى مكانه، فأخرج السرير صريرا خفيفا. مالت نانكي بجسدها الثقيل، بحركة سريعة وأطفأت المصباح.

قامت بذلك تحوطا، فقد يكون في الخارج من يدور حول جدران البيت بحثا عن أثر للحياة، جلسوا في الظلمة.. لم ينبح الكلب في الساحة، وتوقف الطرق. ظن موريك أنه سمع

ضحكة، ثم صوت حركة الباب. لكن الحانة الرخيصة تكون مزدحمة وصاخبة يوم الجمعة.. ويمكن أن يكون الصوت آتيا من أي مكان. قال:

«المؤكد أنه شخص شرب بضع كؤوس. يحدث هذا كثيرا. أحيانا لا نستيقظ كما أظن. أليس كذلك يا نانكي؟»

أوقظ همس موريك الأجش الطفلة، التي أطلقت عويلا خافتا، كمن يمر بحلم مزعج.

وذهب الجميع إلى النوم، في الظلام.

* * *

مدينة الأموات.. مدينة الأحياء.. كان الوضع أفضل حين كان سامسون يجعله يتحدث عن أشياء كتلك.. فالأشياء البعيدة لا تسبب أي أذى أو ازعاج.. لن يكون لدينا سيارة، كما لأعضاء المجلس ولن نذهب إلى تلك الاماكن البعيدة مثلما فعل. نحن محظوظون بحصولنا على هذا البيت، ويحسدنا كثيرون جدا، عليه.

لم أعرف إلى أن أصبح هذا البيت هادئا جدا، مدى الضجيج الذي يحدثه الناس في العطلة الاسبوعية.. لم أكن أسمع الضحك، والأحاديث في الشارع، والموسيقى المنبعثة من حانة راديب، والصرخات المرعبة الصادرة عن أناس يتشاجرون...

* * *

حمل موريك يوم السبت، حافظة الأوراق الزرقاء، وغلاف رسالة، وذهب إلى المطبخ. لكن زوجته كانت تحضر «اليقطين»

وتقطع شرائح البصل، فلم يجد متسعا للجلوس. عاد إلى الغرفة التي توجد الأريكة والمذياع والمسجل فيها. كتب على الغلاف عنوان ابنه ذي الاثني عشر عاما، الذي يدرس في مدرسة تابعة لاحدى الارساليات. أخذت كتابة الرسالة منه، الصباح كله على رغم أنه يقرأ جيدا، كما استعان بالرجل مرة أو اثنتين لتهجئة كلمات باللغة الانجليزية.

كان الرجل مستلقيا، يدخن على الأريكة. سأل موريك:

«لماذا بالانجليزية»؟

أجاب موريك:

«يعرف رابولا اللغة الانجليزية جيدا.. تساعده الرسائل المكتوبة بالانجليزية على تحسين مستواه اللغوي..».

قال الرجل:

«كان يجب أن لا تدعه يبتعد عن هذا المكان، يا رجل.. انك تظن أن ابعاده اكثر أمانا لكنك مخطىء.. الأمر شبيه بحالتك مع الاجتماعات.. فكلما حاولت أن تكون أكثر أمنا، يزداد الوضع سوءا بالنسبة لأولادك».

حدق بموريك بهدوء وقال:

«اسمع! أنا الآن، هنا!»

«نعم!»

«وأنت تعتني بي».

«نعم!».

«ولست خائفا»..

قال موريك:

«نعم، نحن خائفون.. لكن من أشياء كثيرة.. عندما أعود إلى البيت، اعتدى «الزعران» علي ثلاث مرات وأخذوا كل ما معي من نقود.. ترى هنا جرحا في ذقني.. وقد كسرت ذراعي هذه أيضا.. لم أستطع الذهاب إلى العمل، أو حتى وضع جزازة العشب، اضطررت لاستئجار شاب للعمل نيابة عني».

كان الرجل يبتسم ويدخن. قال:

«هل تعرف أنني لا أفهمك؟! لا أفهمك أبدا. أعد أطفالك إلى البيت يا رجل. نحن محبوسون في هذا «الغيتو» لكي يقتل بعضنا بعضا.. هذا ما يريدونه، في مدينتهم البيضاء.. أنت ترسل أطفالك بعيدا.. وهذا ما يريدونه تماما. يريدون التخلص منا. يجب أن نتجمع ونظل معا، هذه هي الوسيلة لكي نكافح من أجل الخلاص».

سأل الرجل موريك، تلك الليلة، إذا كان لديه رقعة بيادق شطرنج. قهقه موريك وقال ببعض الحرج:

«تقصد تلك اللوحة التي عليها دمى صغيرة؟ لست مثقفا!

لا أعرف هذه الألعاب».

لعبا معا، اللعبة التي يعرفها الجميع، التي تلعب خارج الدكاكين، وفي ساحات المصانع، حيث ترسم رقعة لعب على الاسمنت، أو في الرمل، وتستخدم فيها الاغطية المعدنية لقوارير المشروبات. رسم موريك الرقعة على واجهة صندوق، وقامت

بمهمة الأغطية، حبات من الفاصوليا الجافة من مطبخ نانكي. كسب موريك جولة إثر إخرى.. أحضرت زوجته موقد «البريموس»، إلى الغرفة وأعدت الشاي.. لم يستأنف اللعب.

جلسوا يستمعون إلى أصوات ليل السبت التي تحيط بهم، وتطبق على جدران الاسمنت التي بني البيت منها.. أخذت نانكي تغالب النعاس. لكن زوجها والرجل لم يتحركا للذهاب إلى الفراش.. التقط الرجل ابرة النسيج ذات الرأس الدقيق، وراح يزيل الاوساخ المتراكمة تحت حواف أظافره.

نهض الرجل أخيرا لينام على الأريكة مسترشدا بالضوء الخافت المنبعث من سيجارته المشتعلة.. رأى أن المرأة وضعت على الأرض «نونية» من البلاستيك قال لنفسه ان زوجها ربما كان وراء الفكرة.

أمضى الرجلان صباح الأحد كله يصلحان، معا، آلة التسجيل الخاصة بموريك، رغم أنهما لم يكونا قادرين على فحصها خلال تشغيلها. لم يكن لدى موريك المال اللازم لارسال آلة التسجيل إلى دكان الفني المختص باصلاحها واعتقد الرجل أن المشكلة بسيطة. فقد كان معتادا على وجود مثل هذه الآلات، كغيره من شبان المدن. أعدت زوجة موريك وجبة للغداء مكونة من «الكاري» وحساء الذرة والأرز. تبعت زوجها إلى الغرفة لتسأله، وحدهما:

«هل أذهب إلى راديب وأجلب بعض البيرة؟»

قال زوجها:

«أتريدين الاعلان عن وجودنا والقول: نحن هنا؟ لقد سمعت ما قاله».

قالت:

«اسأله إذا كان في ذهابي ضرر.. كامرأة.. »

قال زوجها:

«لن أسأل ! هل قال انه يريد بيرة؟ هل قلت أنا؟»

لكنها اتجهت في المساء، نحو الرجل مباشرة لا إلى موريك وقالت:

«سأذهب إلى الدكان».

كان الطقس حارا جدا، ورائحة «الكاري» مختلطة بالرائحة المنبعثة من لفائف الطفلة. تغضن وجهه وبرزت أسنانه بتساؤل عن الحوانيت التي قد تفتح يوم الاحد، فهمت، فقالت:

«توجد حوانيت في بعض الأماكن تفتح حتى أيام الأحد لبيع الأشياء الضرورية.. يجب أن أحضر حليباً... حليباً للطفلة».

وقفت امامه بالشبشب البالي، وتنورتها القديمة وبلوزتها الرخيصة.. كانت كأي امرأة لا يمكن تمييزها بين النساء الاخريات، في الشارع. لم يرفضها، خاصة بعد ذلك الأسبوع كله.. ليس من أجل الطفلة.. لم تكن كبيرة الفم، كزوجها، وبشوشة مع الجميع.. هز رأسه، فالأمر لا يعنيه..

خرجت من البيت، بالهيأة ذاتها، حاملة النقود في يدها. كان موريك والطفلة نائمين في غرفتهما.. بدا الشارع جديدا وبراقا ومنعشا، مقارنة بالبيت الكئيب. أمطرها طفل بلعبة رشاش في يده.. كانت راديب صاحبة الحانة الرخيصة، تخرج سيارتها من الكراج مرتدية ملابس جميلة، وقد طلت أظافرها باللون

الاحمر. أوقـفت السـيـارة لتدع جارتها تمر، وأطلت من نافذة السيارة لتقول (بالانجليزية).

«عزيزتي..! كان يجب أن أذهب قبل ساعتين فأنا مدعوة إلى حـفل عـرس، شـارف الآن على الانتـهـاء.. كـيف حالك لم أر زوجك منذ بضعة أيام.. هل في الشارع شيء؟»

توقـفت زوجـة مـوريك، وهزت رأسها. لم تكن راديب من اللواتي يتـوقـعن إجـابة أو ينتظرن إجـابة عندمـا تحـيي أي شخص.

عـبرت زوجـة مـوريـك، الشـارع، بعـد مـرور السـيـارة، واجـتـازته إلى الشارع التالي، ومرت بدكان تجمع شبان حوله يغنون ويرقـصـون على صوت المذياع الموجود فيه. وصلت إلى المـكـان المسـيج، الذي يحيط بمـبنى يعلوه علم. كـان يحرس المبنى، أحـد الأفـراد من مـواطنيـهـا مسلح برشاش. صعدت الدرجـات ودخلت إلى المكتب حيث وجدت آخرين من مواطنيها أيضـا، يرتدون الزي الرسـمي، وأحـدهم يدير المكتب. تحدثت مـعـهم بلغـتـهـا لكنهم بدوا غير مصدقين.. أعادوا عليها اسم مـركـز الشرطة الذي نسف، وسألوها إذا كـانت مـتأكدة مما قـالت. أجابت أنها متأكدة تماما.. أخذوها إلى الضـابط الابيض، فقالت باللغة الانجليزية:

«إنه في بيتي رقم 1907 بلوك «جـ» انه هناك منذ أسـبوع معه مسدس...».

* * *

لا أدري لماذا فعلتها.. أريد أن أقول هذا لكل من يسألني في هـذا الـبـيت... لكن لا أحـد يسأل. تضـحك الطفلة مني، وهي

تستـــحـم بين يدي.. تحـدق بي، ونحن وحدنا في البيت، عندما ترضـع من ثديي، وأقول لها بصوت عال: لا أدري لماذا..!

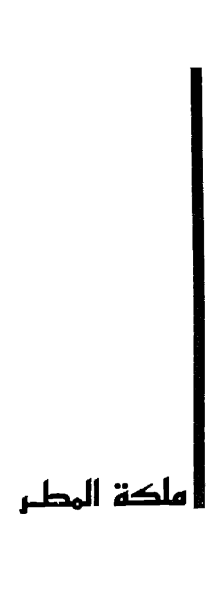
قـابلت اراديب، زوجـة مـوريك، مـرة ثانية بعد اسبوع من اخـذ الشرطة، ذلك الرجل، رمقتها صاحبة البار، بعينيها لحظة، ثم بصقت.

* * *

هامش:

(1) الشرطة العنصرية في جنوب افريقيا. (المترجم)

(2) المواجـهـات التي حـدثت بين الحكم العنصري والمواطنين الافارقة في جنوب افريقيا وراح ضحيتها المئات من السود.



ملكة المطر

كنا نقيم في الكونغو في ذلك الوقت، وكنت في التاسعة عشرة. وقـد أقـيم حفل عيد ميلادي العشرين في «أوريليس»، بحضور آل جاتي ونيونـهوز، ومدير موقع المشروع الذي يتولاه والدي.

كـان والدي يشق طريقـا من «اليـزابيث فيل» إلى مقر إقامة تشـومـبي، للاسـتعراضات، ومواكب السيارات. تدعى المنطقة الآن «لوبومباني»، أما تشومبي فمات في المنفى.

لكن الأمـوال كـانت وفيرة آنذاك، واسـتقدم أبي من جنوب أفريقيا وأطلقت يده في تشغيل من يشاء من المهندسين، من أي مكان. كان آل جاتي ايطاليين، وكان هناك شاب سويدي أيضا.

لم أكن أريد مغادرة جوهانسبرغ، لوجود صديقي الآن هناك، لكن أمي لم ترق لها فكرة أن تتركني وتذهب، من أجله.

قالت لي: «بكل أمانة، أعتقد أن إغراءات البقاء تضع عراقيل كبيرة أمام صبية في مثل سنك» كنت صغيرة في ذلك الوقت، فاستسلمت.

لم يكن لدي أشياء كثيرة أقوم بها في «ايفيل» كانت بعض النساء البلجيكيات المتزوجات، اللواتي يكبرنني ببضع سنوات، يأخذنني في جولاتهن. كنت أتناول معهن القهوة في البلدة صباحا، وألهو قليلا مع أطفالهن.. كانت أمي ترجوهن أن يتحدثن معي بالفرنسية، لأنها لم تشأ أن تكون فترة الأشهر الستة مضيعة كاملة للوقت.

علمتني إحداهن طريقة صنع «الشوكولاته» بالقشدة، واستطعت حياكة ثوب لنفسي بارشادات من امرأة أخرى.. كنا نثرثر معا، كما كنت أفعل مع الفتيات في المدرسة قبل بضع سنوات..

كان الجميع ينكفئون إلى «أوريليس» بهبوط المساء.. كان الشبان منا يقضون الليالي، حين يبرد الجو، في لعب «الأسكواش». اعتدت أن ألعب كل يوم مع السويدي، وماركو جاتي، اللذين كانا يأتيان من الموقع مباشرة. كانت إيلينورا جاتي، لا تبدو وكأنها تنتمي إلى الجنس الآخر، بل كأنها من فئة مخلوقات مختلفة عن الذكور.

لم يكن في وسعك تخيل رؤيتها تجري، أو تنحني لالتقاط شيء عن الأرض. كان صدرها الأبيض يتوارى خلف ثوب ذي

ياقـة عنق مـربعـة، وتطوق يدها سـاعة مكسوة بالمجوهرات، وتضـع الخـواتم في أصـابعـها.. وكانت عقصة شعرها الداكن، الذي يشـبه مادة هلامية تلاشى بريقها، توحي بحياة راكدة.. أما السويدي فلم يكن متزوجا.

اعـتـاد ماركو أن يوصلني إلى البيت، ويصعد غالبا، لتناول كأس مع والدي، ومناقـشـة مـشكلات العـمل في الطريق. كان مـعـتـادا على الجلوس مـبتسما، وادخال يده في قميصه وحك حلمـة صـدره حين يتحدث أو يفكر في مشكلة. كانت تتدلى من عنقـه داخل قميصه المفتوح، سلسلة وتميمة لتستقر فوق شعر صدره الأسود، بين عضلاته القوية.

قـال والدي عنه: «قد يبدو مثل مغن في الأوبرا، لكنه يعرف كيف يعمل وينفذ».

لم أكـن قـد دخلت إلى أوبرا في السـابق، لأنها لا تنتـمي إلى جـيلي.. حين أخذ ماركو يقبلني كل مساء. في الطريق إلى البيت، ثم يدخل البيت للحديث مع والدي وتناول البيرة، حاولت منعه، لأنني أخذت أرى فيه شخصا غريبا.

قلت : «يبـدو لي الأمـر مـضـحكاً، أن تدخل إلى الغرفة التي يكون والدي فـيـهـا» فـقال ماركو: «يا فتاتي المسكينة! إنك لا تستطعين المقاومة حين تكونين جميلة، أليس كذلك؟!».

يهطل المطر هنا كل مـسـاء في ذلك الوقت من العـام.. تهب عـاصـفـة ريح مـفاجئة تنحي الحرارة بلمسة سحرية، وتنثر الأوراق على الجدران.. وبعد ذلك بخمس عشرة دقيقة، توقيتها تمامـا، ينهـمـر المطر عنيـفـا وضوضائيا، بحيث لا نعود نرى

مـؤشر الرياح. ونضطر للحـديث بصـوت مرتفع كأننا في قاعة يتردد الصدى داخلها. كان هطول المطر يستمر ساعة تقريبا.

ذهبنا ذات مساء، إلى الموقع، بدلا من العودة إلى بيت والدي، كـان هناك «كـارافـان» جلب ليقيم فيه أحد المهندسين، لكنه لم يسـتـخـدم أبدا، لأن الجـميع يقيمون في المدينة.. صاح ماركو ليـعلو صـوته صـوت المطر المنهـمـر: أتعرفين ماذا يقول أهل الكونغـو؟! «حين ينزل المطر، ابحث فـورا عن فـتاة، وخذها إلى البيت إلى أن يتوقف المطر..».

كـان «الكارافـان» يشـبـه شقة صغيرة، تحتوي على كل ما تحـتـاجـه، وقـد أراني مـاركو أن فيها حماما. لم يكن ماركو طويلا. (كانت الفتيات في بلادي متفقات على أنه لا يمكننا النظر إلى أي «ولـد» يقل عن سـتـة أقـدام). لكنه كـان يملك سـاقي الرياضي الجـميلتين القويتين، يغطيهما شعر أسود كثيف.. كان يلكز سـاقي بسـاقـه الصلبـة، حين يثـور.. كان ذلك نوعا من المداعبة لم نفكر فيه سابقا.

واكتشفت أننا، في بلادي، لم نكن نعرف شيئا.

بدا ماركو متجها إلى البيت مباشرة مساء اليوم التالي، فقلت في نـشـوة ممـتـزجـة بالأسف «ألسنا ذاهبين إلى الكارافـان!» انطلقت تلك العـبـارة مني، قـبل أن أفكر فيها.. ضحك وأوقف السيارة، وهو يقول: «حبيبتي المسكينة، هل خاب أملك؟!»

وقبل شفتي وأذني طويلا، بحرارة «ممتاز.. إلى الكارافان!»

صرنا نذهب إلى «الكارافان» في عطلة نهاية الأسبوع. فهو لا يـعـمـل أيام السـبت، وتذهب النسـاء في ذلك اليـوم، إلى نادي

«الاسكواش». كان الحارس الكونغولي، يهرول سريعا من معسكر العمال، ليحيينا، بمجرد أن يرى السيارة تقترب من «الكارافان».. كان يعرف أنني ابنة أبي، كان ماركو يتبادل معه بضع كلمات، ويعطيه بعض «البقشيش» بين فترة وأخرى.

كنت، في البداية، أقف جانبا، كمن تنتظر أن يخبرها أحد ما عليها أن تفعله لاحقا. لكن ماركو كان يحصل على ما اكتشفت أنه يجب أن يكون قناعة أناس بالغين. كان يقول: «لا تنزعجي فهو عجوز طيب. إنه صديقي!»

علمني ماركو الحب، فألغى من حياتي كل ما كنت أعتبر أنه «الحياة».

جمعت فيما بعد ملابس الدمى، ولعبة «المونوبولي» وأعطيتهما للخادمة. توقفت، أيضا، عن الكتابة إلى صديقاتي وأصبحت أتأخر أسابيع قبل الرد على رسائل ألان المنتظمة. كان يتملكني الغرور والزهو. وأنا أفكر في الطريقة التي أكتب بها له: هل تكون رسالة حب، أم لا؟؟ أخذت أشعر أن رسائل كهذه ستكون أكبر من قدرته، أعني قدرة تجربته على اتخاذ قرار. أصبحت أشفق عليه، وأشعر نحوه بإحساس أبوي.

لم يتغير سلوك ماركو، وتعامله معي، أمام والدي، أثناء وجود أصدقاء، كان ذلك يشلني كالمنوم مغناطيسيا. فقد كنت أتصرف وكأنه لم يحدث شيء، لأنه كان يعتبر أنه لم يحدث شيء حقا!

لم يكن يدعي السلوك «العادي» أمام أمي وأبي، بل كان تصرفه عاديا بالفعل. وكان ذلك أيضا ينسحب علينا في وجود

زوجـته.. بعد ذهابنا إلى «الكارافان» في المرة الأولى، كنت أنتظر برعب وألم اللحظة التي سأرى فـيـها إيلينورا. تخيلتها تقرص يدي، أو تقـبل خـدي، كما تفـعل أحـيـانا، بأسلوبها الأنثوي الحنون. لكنني تجـاوزت مخاوفي، دون الشـعـور بالذنب، حين صـادفني عبق عطرها في منزلنا، ذلك الأحد، وهي جالسة قرب أمي وتتـحـدث مع أبي ومـاركو، وآخرين، عن أهلها في جنوة. كنت عـائدة من جـولة بالسـيارة مع السويدي... قال أحدهم: «رائع! ها هي حلوتنا جيلي أخيرا!» وقالت أمي: «لا أدري كيف تسـتـمـر مع بير. ظلا يرقـصـان حـتى الثالثة صباحا خارج البـيت». وقـال مـاركـو ذو التـسعة وعشرين عاما. «ما معنى الشـبـاب إن لم يكن كـذلك!» أما والدي فقال: «متى ذهبت إلى النوم، بعـد الليلة الماضـيـة؟ على أي حـال، يا مـاركـو..» أمـا ايلينورا، صـاحبة الربلتين الناعمتين المتشابكتين فوق بعضهما. فقد جذبت يدي برفق لنتبادل قبلة نسائية على الخد.

شـمـمت رائحـة جلدها، وأحـسـسـت بشعرها يمس أنفي.. جلسنا نتـحـدث عن أحـذية أرسلتـهـا لها شـقيقة زوجها من مـيلانـو. لم أسـتطع احـتمال الأمـر: فأنا ومـاركـو لم نكن مـوجودين هناك في الواقع ولا حاجة للحرج... وكان آل جاتي في منزلنا، منذ الحـادية عشرة صـبـاحـا. ككل يوم أحـد، فور انتـهـاء الصـلاة في الكاتدرائيـة الكاثوليكيـة.. وكـانا يرتديان ملابس أنيقة.

كـغيره من مـثل هذه الأماكن الافريقية، يعتبر وجود النساء البـيض في كاتانغا قليلا، وكانت أمي تبدو أكثر سعادة برؤيتي أمضي الوقت مع عـائلات شـابة، أكثر مما كان سيحدث لها لو

راتني أخطف على أيدي المرتزقة الذين كانوا يجوبون منطقة «إيفيل» ذلك الصيف. كانت تقول لي: «إنهم رجال مدربون بعكس الأولاد والرجال المتزوجين. وبالطبع فهم يذرعون المنطقة لأخذ ما يمكنهم الوصول إليه.. ليس لديهم ما يفتدونه، انهم ينتقلون في الأسبوع المقبل، مثلا إلى مقاطعة جديدة.. أنا لا ألومهم وأعتقد أن على أي فتاة أن تتعرف على العالم. وإذا كانت متهورة إلى حد التورط مع مثل تلك الجموع، فإن عليها أن تتحمل النتائج».

كان يبدو على أمي أنها نسيت، أنها لم تشأ أن تتركني في جوهانسبرغ، برفقة صديقي ألان. كانت تقول عنه: «لديها (ولد) رائع في الوطن.. ولد دمث يحترمها.. إنني أفضل أن أراها تمتع نفسها معكم أيها الأزواج الشبان، بصورة عامة فقط، خلال إقامتنا هنا».

كان هناك عازب واحد فقط هو بير، السويدي، الذي يمكن برفقته إكمال «الأزواج» في الجلسات والنزهات.. وكانت تعرف أنه «ليس الطراز الذي تعشقه جيلي».

كانت هذه الحقيقة تعطيني ميزة كبيرة. فحين لا أكون فتاة أي فرد آخر، فإن معنى هذا أن أكون مرغوبة ومحط أنظار الجميع.. سمعت مرة الشابة البلجيكية ميريل، تقول لزوجها كاشفة غيظها: «بالطبع إنك تفضل الرقص مع جيلي». كنا أنا وهو، ثنائيا رائعا في حلبة الرقص، فحين نؤدي رقصة «التشا - تشا» كان يجيبها همسا بلغتهما، فتقهقه وتقرص ذراعه.

كانت شهرتنا، أنا وماركو، في لعبة الاسكواش، لا تقل عنها

في حلبة الرقص، حين أكون مع زوج ميريل.. كان ملعب الاسكواش هو المكان الوحيد الذي يمكن فيه لمن لديه عينان تلاحظان، أن يدرك حقيقة ما كنا نفعل في «الكارافان».. كان أداؤنا في اللعب يتحسن بتطور أحاسيسنا وممارستنا في «الكارافان». علمني ماركو كيفية التجاوب على صوت ارتطام حبات المطر بسطح «الكارافان» .. وكان هذا التجاوب ينعكس علي في ميدان الاسكواش. كانت النساء ينخرطن أحيانا في نوبة تصفيق طويلة، بينما كنت أتابع وجه ماركو المتحفز، الذي يملأه العرق، كما يحدث هناك.

كان، حين نهزم ثنائيا منافسا، يضم كتفي بذراعيه، وهو يضحك ويمتدحني للآخرين باللغة الايطالية، ثم يقول لي بالانجليزية: «ألست فتاة رائعة؟!» كنت أنا وهو فقط، ان هذا هو ما كان يقول لي في اوقات أخرى.. كنت أعشق ابتسامته المتدفقة. كان دائما يحدثني عن نفسه.. ابنة عمه التي وقع في غرامها، حين كان يقضي عطلته مع عائلتها في جبال «أبروزي».. الأسلوب الذي كان سيستخدمه لشق طريق تشومبي، لو كان هو المسؤول لكنه كان يقول: «لكنني أحب والدك، هل تفهمينني؟ العمل مع أبيك رائع أتعرفين ذلك؟».. وكان يتحدث عن «كريم» الأطفال الايطالي، الذي يستخدمه لازالة آثار الحرارة على خصره.

أذهلتني براءة أولئك البالغين.. فقد كانوا منغمسين في ألعابهم بغرض التسلية المحض، فيما اقلعت أنا عنها وأخذت أشعر بكبرياء وتعال عليهم. كان إحساسا جميلا حقا. فقد أحسست بأنني أشفق وأتحمل متطوعة أيضا، عبء رعاية، ذلك

البـعيد. الان. قلت لماركو: «أتساءل ما الذي يفعله حين يعرف.. عني، وعن «الكارافـان» وستائره المنقطعة، والحارس السعيد. و«البقشيش».. وأنفاس الأرض المنبعثة من الغبار المبتل..» فقال بهدوء ان ألان سوف يقلق لهذه المعلومات.

«وإذا عرفت إيلينورا؟!».

منحني مـاركـو ابتـسامته الواسعة الواثقة، وهو يربت على وجنتي براحة يده، في حركة مقاطعة حانية، وقال:

«لن يسرها ذلك. ولكن في حـالة الرجل..» وتقمص، للحظات شـخصية إيلينورا، وراح يقلد رد فعلها حين تتلقى النبأ (وهي جالسة على مقعده كالعادة)، وتجيب بأنها دائما كانت تقول ان الرجال كلهم كذلك. كان الآخرون الذين دارت حولهم الأقاويل، أو أقـامـوا عـلاقـات مع عـشاق وعشيقات، يثيرون اهتمامي، ويحتلون جـانبا مهما من تفكيري، واصلت مشاركتي في المهذر الدائر فـقلت: «حـين يكتـشف زوج امـرأة، كهذه الأمر، فإن ما سـيـفـعله هو المسـارعة بالخروج من البيت دون نقود أو أي شيء، ولا يسـتطيع أحـد العـثور عليه قبل أسابيع» لكن ماركو حين دار في ذهنه احـتمال أن يتـعـرض لهذا الموقف قال: «أظن أنني سأجن، إذا رأيت إيلينورا مع شخص آخر».

أخبرني في السيارة، تلك الليلة ، أنه ربما يكون هناك مفاجأة سـارة لي. تذكـرت ذلك، ونحن مـستلقيان وألححت في السؤال عنها، فقال: «إنك تتعلمين كيف تصبحين صغيرة مزعجة حقا.. مـزعـجـة صـغيرة، صـحيح؟!» قلت: «لن أدعك تذهب قبل أن تخبرني» فقال:

«أظن أنني يجب أن أضربك كالصغار.. هكذا..آه!»

كانت المفاجأة خطة. علمت أنه قد يذهب برفقة والدي إلى «كاساي» لتقديم المشورة في صعوبات يواجهها مصنع مقام هناك، قال إن من السهل علي اقناع أبي بالموافقة على أن أرافقه، وإذا استطاع هو، ماركو، تدبر أمر إبقاء إيلينورا هنا، فإن الأمر سيكون رائعا، كما لو أننا نقوم برحلة وحدنا.. سألني ماركو:

«هل ستكون لك غرفة خاصة؟» ضحكت:

«أتظن أنني سأزج مع أبي في غرفة واحدة؟»

قد يكون من غير المسموح للمرأة في إيطاليا أن تنام في غرفة وحدها، في فندق.. انتقل ماركو إلى النقطة التالية:

«إيلينورا تصاب بالدوار في السيارة، وهي لن ترغب على أي حال، في ركوبها على طريق وعرة وعليك أن تتحملي انت الوعورة.. لا بأس، سأخبرها أنها لن تشعر بالمتعة..».

لم نستطع الكف عن الضحك والثرثرة والتقبيل والفرح، مع فكرة أننا سنمضي معا أياما، وربما ليال كاملة.. أحسست بخدر في لساني كأني احتسيت كميات من النبيذ.

يتحدث ماركو بالانجليزية بشكل جيد. وكانت العبارات التي يستخدمها مألوفة بالنسبة لي. فهو لم يكن يستخدم كلمة «أجن» بمعنى الغضب. فعندما يقول: «سأجن» فإنه يعني مفهومها الحرفي، رغم أننا لا نستخدم الكلمة بالانجليزية بنفس المعنى الذي يقصده. فكرت في كلمته في الليل، وحدي. وفي الليالي التالية، إنه يعني فقدان عقله. سيتملكه الخبل والجنون

إذا نامت إيلينورا مع رجل آخر.

قال لي ذلك لأنه شخص صادق حقا، وليس كالشبان الآخرين. فقد كان صريحا «إني أحب والدك، هل هذا واضح؟ لا أحب بعض ما يفعله بالنسبة للعمل في الطريق، لكنه رجل طيب». كان ماركو متعلقا بحبي، وكنت بالنسبة له كنزا ومتعة، إضافة الى كلمات أخرى بالايطالية، كان في الحقيقة سعيدا جدا معي، كنت ألمس ذلك. لم أعرف أن الانسان يمكن أن يكون سعيدا إلى هذا الحد لو أنني لم أقابل ماركو.

كما أن ألان لم يكن يعرف أيضا..

كنت أراقبه طيلة الوقت، حين نكون معا في «الكارافان» وحين كنا نستلقي نغالب النعاس، كنت أنظر بفضول إلى حركة فتحتي أنفه الدقيقتين، والشعر الأسود النابت داخلهما، الذي يتحرك بأنفاسه . يا لماركو! زوج إيلينورا! كم كان جميلا وهو نائم! كان يبتسم ويتحدث بصوت عال وهو نائم، ويلفظ اسمي أحيانا. لكنني لا أدري إذا كان يعرف انه يفعل ذلك.. ثم كان يستلقي طويلا وعيناه مفتوحتان دون أن ينظر إلي، لأنه لا يحتاج إلى هذا فأنا بقربه..

كان ينهض بعد ذلك، فيشعل سيجارة ثم يقول لي: «كنت أحلم. آه.. لا أعرف. إنه عالم آخر..!»

كانت لحظات ذعر وتوجس بالنسبة لي لأنني أدخل العالم من باب طفولتي. ولا أستطيع التكيف مع الواقع كما يفعل الكبار أمثاله.. كان يجب أن أجد المتعة في مكان آخر.. وكان هو يفر من عالمه بي، وأدخل أنا العالم عبره.

كنت أرى إيلينورا كل يوم تقريبا. كانت معجبة بي.. وإنها من ذلك الطراز من النساء في بلدي. اللواتي يحتفظن بأخوات أصغر سنا، ليعتنين بالأطفال، الذين لم يكن لدى إيلينورا أحد منهم. لم أشعر بالذنب نحوها، رغم أنني كنت في البداية، أحس بفظاعة أن يستولي أحد على شيء يخص امرأة أخرى، بحكم القانون. كان يقلقني غباء ما تقوله إيلينورا.. غباؤها لكونها لا تعلم. أي غباء كان يتلبسها وهي تخبرني عن تأخر ماركو في العمل بالموقع الليلة الماضية، وعودته منهكا! ألم أكن معه، بينما كانت هي تطهو له طعامه المفضل؟!

كانت تشكل لنا نوعا من الضريبة الكريهة كان ماركو يقول أحيانا:

«يجب أن أذهب! علي أن آخذ المسكينة إيلينورا إلى السينما. فهي لم تذهب إليها منذ أسابيع» أو «إنه آخر يوم لارسال الطرود إلى إيطاليا. وهي تريد مني أن أساعدها غدا في إعداد طرود هدايا عيد الميلاد.. تعرفين كم تهتم إيلينورا بهذه الاشياء!».

جاءت أيضا، خالتها من إيطاليا، وأقيمت دعوات للغداء والعشاء اقتصرت على المتحدثين بالايطالية، لأن السنيورة لا تستطيع التحدث بالانجليزية، أتذكر حين ذهبت هناك يوم أحد بطلب من أمي، حاملة طبق «البوظة» الذي شاركت به في الدعوة.. كان الجميع جالسين متحلقين في الشرفة الحارة، منفصلين إلى قسمين يضم أحدهما النساء والأطفال الذين يحومون حولهن. كان ماركو يجلس مع الرجال في الجزء الآخر، وقد أرخى ربطة عنقه وفتح الزر العلوي لقميصه

(كانت إيلينورا أرغمته على ارتداء بدلة) كان جالسا هناك يعبث بأسنانه بشوكة خشبية، وينفض رماد سيجاره. في أصيص زهور إيلينورا.

وحين التقينا في المساء ذاته داخل الكارافان، قال ثانية: «يا إلهي العظيم، لا أريد أن أصحو.. كنت في حلم» خرج من الكارافان إلى الظلمة، حافي القدمين بسروال «الجينز» المشدود. كان يبدو كصائد أسماك جميل.

لم أكن زرت أوروبا، قال ماركو: «أريد أن أقود بك السيارة في (بيمونت)، وآخذك إلى القرية التي أتى والدي منها. سنتسلق الأسوار من الكنيسة، وحين تصلين إلى أعلى، سأديرك إلى الخلف لترى جبل «ماونت بيانكو» البعيد. أسمعت صداح العنادل؟ لم تسمعي؟! سنصغي إلى العنادل، في بيت عمي...».

كنت أكبر كل يوم. قلت «ماذا عن إيلينورا؟» كان ذلك السؤال هو أقرب عبارات أجرؤ على قولها لتعبر عما أريد أن أسأل عنه حقيقة:

«أمازلت ستجن؟»

«أمازلت ستجن؟»

«والآن؟!»

«الآن؟! بعد شهرين، أسبوع ، ستة أسابيع؟»

«أما زلت تشعر أنك سوف تجن؟!»

كان يقول «ستمضي إيلينورا بعض الوقت في «بيزا» بعد أن نعود إلى إيطاليا. ستبقى هناك مع أمها وخالاتها».

كنت أعلم هذا. علمت من أمي أن إيلينورا ستذهب إلى بيزا لأن فيها طبيبا عجوزا يعالج العائلة هناك. وهو متأكد ورغم ما يقوله الأطباء في ميلانو وروما، أن المسكينة إيلينورا يمكن أن تصبح أما ذات يوم، ويكون لديها أطفال.

قلت: «كيف ستشعر إذا جاء الآن إلى هنا؟»

لكن ماركو نظر إلي بثقة فهم حسي، جعلتنا نضحك.

أخذت أخيط علاقة حب لايلينورا اخترت بير ضحية لخطتي، لا لأنه الوحيد غير المرتبط بعلاقة في دائرتنا، ولكن أيضا، لشعوري بأنها يمكن أن تنجذب إلى رجل أصغر منها، لتمارس أمومتها عليه! أما بير الذي لا امرأة له (باستثناء بائعات الهوى الكونغوليات الجميلات، واللواتي يصحبنه ساعة في المطر، كما أظن) فإنه سيشعر بالسعادة، إذا نجح مع إيلينورا، تفحصت تفاصيل جسدها جيدا. لكن لم يبد على إيلينورا إدراك أنه يزج ببير في طريقها (بيننا في أوريليس) كما أن بير نفسه بدأ غير معني أو غير مهتم بالفرص المتاحة أمامه.

لذلك، لم يعد لدي مجال لتكرار توجيه سؤالي لماركو.. ظللنا نتردد على «الكارافان» بينما كان سقفه يتقلص محدثا ضجيجا، خلال تسرب حرارة النهار منه أثناء هطول المطر..!!

هرب تشومبي ثم عاد، وكان هناك جنود في الميدان أمام مكتب البريد.. وبرزت صعوبات كثيرة أمام اكمال شق الطريق. كان ماركو ممتلئا بالعزم والإثارة والحيوية، ويستلقي على السرير في الكارافان، آخر النهار، كعداء لامس بصدره للتو، شريط نهاية السباق. أما والدي فقد أصبح عصبياً ولم يكن

يعرف ما إذا كان يجب أن يتم العمل.. وصارت إيلينورا عصبية المزاج، وتريد العودة إلى إيطاليا.. حين فتح ماركو عينيه في الكارافان ورآني، رأى في أعماقه الطريق، وأبي وإيلينورا.. فقال: «يا الله! لماذا؟! إنه كالحلم..».

أصبحت عصبية أيضا، قلت لأمي متعمدة استفزازها: «إن آل جاتي مضجرون.. خاصة هذه (البوذا) الأنتومي..» وتكون لدي هاجس مرعب. بأن إيلينورا ستأتي إلي ذات يوم تتنهد بلهفة وتعصر يدها الناعمة لتقول:

«هذا يحدث دائما مع ماركو، أيتها الصغيرة جيلي.. لا عليك، لا تقلقي، فأنا أعرف كل شيء..».

لكننا واصلنا «أنا وماركو»، الاستلقاء هناك، وصنع المتعة التي لا يوجد فيها سوى اللذين يصنعانها.. لم نكن نهتم بالطرق أو الحرب أو المرتزقة أو الزواج، والمناقصات ومعاناة الذين يخسرونها، أو بأحلام ماركو الحسية، التي كانت تعاوده رغم مأساويتها.

لم يحدث ما توجست أن تقوله إيلينورا لي. وبدلا من ذلك فقد أخبرتني أمي ذات يوم، بنغمة عاطفية استثنائية تستخدمها العجائز في مثل هذه الحالة، أن إيلينورا، العزيزة إيلينورا تنتظر طفلا.. بعد ست سنوات من الزواج، ودون أن تذهب إلى بيزا ليراها طبيب العائلة. حملت إيلينورا بينما كنا، أنا وماركو، نلهو في الكارافان كل مساء، ووجد الكونغوليون لأنفسهم فتاة خلال انهمار وابل المطر القصير.

مضت على ذلك سنوات الآن..

مسكين ماركو، انه يجلس الآن في ميلانو أو جنوة، خلال الغداء يوم الاحد، وبين أصابعه شوكة الاسنان، بينما يحوم حول إيلينورا أطفالها، ويحيط به أخوة وأخوات وأعمام وأخوال وعمات وخالات إيلينورا.. لكنني لم أستيقظ من ذلك الحلم. كم من العشاق عرفت، منذ تزوجت قبل سبع سنين؟! أنا وحدي أعلم..! وهم كثيرون إذا أحصينا معهم من عرفت في العطلات القصيرة.

ذلك الحلم عالم آخر، حيث لا تهب ريح أبرد من النفس الدافئ المنبعث من شخصين يلتصق فم أحدهما بفم الآخر...

* * *



مهـــلات

حـصلت بيريل فـيلس، حـديثا، على صندوق لحفظ الأدوات والوثائق من محل لبيع الأشياء المستعملة. تبين أن تلك الخزانة كانت تحتوي على بعض المتفرقات الاضافية، ومغلفة بقطعة من المخـمل المطرز. ووجدت شيئا مختلفا، تحت ذلك المخمل، عندما أخـذت الصندوق إلى شـقـتـهـا.. وجـدت تحـته مجموعة من الرسائل.

هاتفت أصدقاءها، لتحدثهم عن شيء أكثر إمتاعا وتسلية من تبـادل الحـديث عن أخـبـار الشغل ونوبات البرد التي تصيب الأطفـال. سـألتـهم: ماذا تفعلون برسائل ليست لكم؟ قيل لها: نعـيـدها لأصـحـابها! لكنه كـان جـوابا غبيا. إلى أين تعيدها؟

فالعجوز صاحب محل الخردة لا يعرف لمن يعود هذا الصندوق أصلا. وأصحاب الأشياء العتيقة المستعملة لا يخبرون المشتري، مهما كان السبب، بالمكان الذي وجدوا فيه أشياءهم التي اقتنصوها من بيوت بيعت بمحتوياتها، ومن محلات الرهان والمزادات، ومن أناس حاجتهم إلى المال أكثر من حاجتهم إلى أشياء لا يعرفون الارتباطات العاطفية الخاصة بامتلاكها، أو لا تعنيهم في شيء..

قال لها بائع الكتب والأثاث فور سؤالها إياه: «اقرئيها! بالطبع! اقرئيها!» كان ذلك الشاذ المغرم بجمع الكتب، في الخامسة والأربعين من عمره. وكان ذا مزاج مرح، واعتادت بيريل فيلس على الذهاب معه إلى المسرح ودور السينما ليشاهدا معا الأفلام الطليعية. كانا يشكلان ثنائيا معقولا في علاقتهما.

قالت لها امرأة شديدة الانحراف والمراوغة، اعتادت على استراق السمع إلى المكالمات الهاتفية لأبنائها المراهقين: «اقترح أن تحرقيها! ماذا يمكنك أن تفعلي غير حرقها؟! لماذا تحتاجين خزانة الصفيح هذه؟!»

جاء هذا الاقتراح من امرأة لا صنعة لديها سوى قضاء صباح كل يوم سبت في التسكع بين محلات الخزف والفخار، والقيام بجولات في طول المدينة وعرضها، للعثور على دكان يبيع صنفا معينا من الجبن، أو اكتشاف نبيذ جيد رخيص الثمن، لا يسهل العثور عليه.

رأت بيريل فيلس، أن الخزانة المعدنية ستكون مناسبة لتحفظ فيها المفاتيح الاضافية وأسلاك الكهرباء وعلاقات

الصـور. ولأنـها كانت تعيش بلا رجل، كانت بارعة كالذكور في صـيانة أشياء البيت دون أن يسبب لـها ذلك أي مشكلة. ورغم ذلك كانت أظافرها مزينة بالطلاء دائما، ويداها ناعمتين بفضل مـعاجين التجميل، وتبدو كفاها مرتاحتين، كما يتمنى أي رجل لديه نزعـات أنثـوية. وكـانت في حـاجـة، أيضا إلى شيء تنظف بفـضله مكتـبـهـا الأصفر، الأثير لديها، مما يتكدس فوقه من متفرقات لا علاقة لـها بها.

كـانت الرسـائل مـربوطة بشريط واحـد، وموجهة كلها إلى امـرأة بعـينهـا، وبعناوين مختلفة، بعضـها إلى صندوق بريد في المـدينة والبـعض برسم الاسـتـلام لدى مكتب البريد، في دولة أخـرى. لم تـفـكـر بيريل فـيلس أن تكون تلك الخـزانة مكانا صالحا لحفظ الرسائل. لكنها تصبح صالحة إذا كان لدى المرء عـدد كـبير جـدا من الرسائل.. أحصت ثلاثمائة وسبع رسائل وتسع بطاقـات بريدية. وجـدت أيضـا، الكثير من البرقـيـات، بعـضـها لا يزال في المغلفات البرتقالية اللون المرسلة من مكتب البرقـيـات. هناك جـانب شـاذ وغريب في الاحتفاظ بالبرقيات. حملتـهـا بين يديها وقالت لنفسها: إنـها تكون عاجلة في العادة، ولا يحتـفظ بها. قـرأت إحـداها.. يندر أن تكون البرقـيـة ذات طبيعة خاصـة. فالكلمات يعدها موظف البريد، وتكتب على مرأى منه. كـانت البرقـية موجزة وغير موقعة، ولم يكن من الصعب توقع تاريخـهـا وزمنها ورقم رصيف القطار الذي أرسلت منه. فـهي أشياء تكون موجودة في الرموز «الشيفرة» المطبوعة على البرقية.

قـالت لنفـسها: نعم ، نعم، نعم ! إنها برقيات تأكيد المحبة!

ماذا يمكن أن تكون ثلاثمائة وسبع رسائل إن لم تكن رسائل عـشق؟! بدا أن صـاحب الرسـائل ليس هو من وضـعـهـا في الصندوق المعدني. فقد كان بعضها محشوا في الخزائن، بشكل غير منظم.. ربما وجدها شـخص مـا، ودسها في هذه الخزانة التي لا تخص صـاحـبـة الرسـائل. رفـعت بيريل فيلس كومة الرسـائل من الخـزانة، فـوجـدتها ملقـاة باهمال وأن الجـانب العلوي من الرزمـة كان في أسفل الخزانة.. وجدت أيضا ورقة كـتـبـت عليـهـا تعليمات يمكن أن تراها عـينا من يفـتح درج الخزانة، أو يزيح الرسائل من مكانها. قرأت في الورقة:

«يجب أن تحفظ هذه الرسائل والوثائق، ولا تقرأ إلى ما بعد مـرور عشرين عـامـا على وفاتي، ثم تسلم إلى مكتبة أو مركز أرشيف مناسب.».

كـان التوقيع هو الاسم ذاته الموجود على مغلفات الرسائل. لم تكن أخـتـام البريد مـرتبـة زمنيا. ولذلك كان على من يريد تتـبع زمن اسـتـمـرار تلك العلاقة، أن يتفحص الرسائل كلها. كانت الرسائل والبرقيات، تعود إلى سنوات الأربعينات.

(يفسر ذلك وجـود أرقـام أرصفة ومحطات القطارات، بدلا من أرقـام رحـلات الطائرات، على أغلفـة البرقـيـات.) قـالت لنفـسـها: إذا ماتت المرأة فقد رفع الحظر. أما إذا كانت لا تزال على قيد الحياة، فقد كان عليها أن تتلف رسائلها قبل أن تخرج من يديها.

أخـذت بيريل فـيلس تقـرأ، وهـي تحـتسي القـهوة، متأخرة، صـباح يوم الأحد. لم تغير ملابس النوم أو تسو فراشها، ولم تنصرف إلى الاعـتناء بالشجيرات المزروعة في شرفة شقتها، على أنغـام مـوزارت أو موسيقى «الروك» كما اعتادت أن تفعل كل يوم أحـد. (كـانت تهتم عـادة بأشياء تبدو للآخرين ضربا من الجنون). كـانت تلقت دعـوتين لتناول الغداء في بيتي صديقين مـتـزوجين. لكنها تركت لنفسها الخيار الثالث. فاختارت البقاء في البـيت وعـدم تناول الغـداء. شـعـرت أحـيـانا ، وهي تقرأ الرسـائل، بقلبـها يعلو نبضه فتسمعه أذناها، كأنه صوت أحد مـا، يتـجـول في الشـقة.. وتوترت الشرايين الخلفية في مفاصل ركبتيها وأخذت أظافرها الطويلة تعبث بفتحتي أنفها، الذي بدا ساخنا ولزجا.

لم تكن الرسائل مكتوبة من أجل عشيقة عادية. كان الكاتب محل ثقـة تلك المرأة، وناقـدها وحـبـيبها، في الوقت ذاته. كان يكتب بحـمـيمية عندما يحدثها عن أناس امتدحوها أمامه، ولم يكونوا يعلمون أنه يعرفها. وكتب أنه شعر برغبة في احتضانها عندمـا رآها على المنصـة، تلقي محاضرة، مخفـيـة عـينهـا عن الآخـرين، بنظاراتها، وشـعـر أيضـا بالفخر يملؤه عندما رأى اسمها مطبوعا.. كانت الرسائل المطولة كلها تعبر وتحلل سلوك أناس، يشعر الكاتب أنهم يفضلون ذلك على التعبير عن أنفسهم بالعبارات والتلميحات المباشرة. وتبين لها أن الشخصيات التي يتحدث عنها أبطال قصة أو مسرحية. لقد كانت كاتبة..!

وبدا لها أنه عالم، أو شيء من هذا القبيل، مشارك في أبحاث علمـيـة كـان من الصعب معرفة ما كان يأمل في انجازه، دون

الاطلاع على رسائلها إليه. كما كان صعبا أيضا، معرفة المستويات التي ارتقى إليها، خلال السنوات التي كتب فيها رسائله. اعتقدت بيريل فيلس أن الطبيعة المتخصصة لعمله. كانت من طراز ليس لدى عشيقته المقدرة أو الثقافة الكافية لمتابعته، رغم تفتح ذهنها، وذكائها الذي كان يشير إليه في كل رسالة، ونجاحها الذي كان متسقا في إثارته مع الجمال الذي تمتعت به. ويبدو أنه كان يتمتع بمقدرة أدبية تعبيرية أيضا. فقد كتب لها يتغزل بالصفات الأنثوية فيها.

لكنها كانت تأمل أن يحرز المزيد من النجاح. وتشعر بالغيرة عندما ينال آخرون ترقيات وجوائز وتكريما على أعمال مشابهة لما كان يعمل. ووضح ذلك من رسائله، فقد كان يهدئها مستعينا بوجهة نظره، في ما يتعلق برأيه في الكفاءات والمكافآت في مجال عمله.

كان يكتب إليها بجرأة خالية من اللياقة، عن الحقد الذي يشعر به وتشعر به أيضا، تجاه الذين ارتقوا بأنفسهم إلى مناصب عليا، بأساليب يرفض بالتأكيد أن ينحدر إليها. كانت تعزيه، ويروقه أن يسمع عزاءها، ولا ينكر ذلك. فقد كان يدرك قيمته، لاشك، ويؤمن بتأكيداتها أنه مهما كانت الأمجاد التي حصل عليها الآخرون، في طريقهم، فسوف يحصل هو على جائزة نوبل في يوم ما.

تلقى الرجل، في مرحلة ما، بعضا من التكريم على أعماله. وانتقى، كعاشق، ما كان بالتأكيد أقل ما يجعلها فخورة بفوزه ويولد لديها رغبة في الانخراط في عناق حميمي معه.. انفصل عن نفسه للاستمتاع بالفوز كما هو دون تجميل، لمعرفته أنها

غير قـادرة على الحكم على طبـيـعـة ذلك الانجاز، وأهمية ذلك التكريم.. شـعـرت فـيلس بذلك، ضمن عبارات قصيرة محددة مـرتبكة، وأنصـاف جمل غير مـبهمة، كأنه لا يحتمل أن يخفي شـيئا عنهـا، قـرأت العـبارات وأنصاف الجمل المصاغة ببراعة حزينة، التي كتبها رجل متميز إلى امرأة متميزة أيضا، فشعرت أن حـبـيـبـات الشك يمكن أن تغلف وتعـزل بالعواطف والثقة بـالنفس، كما يغلف السـائل الأملس في جـفن العين الأجـسـام الغريبة، ويمنعها من إيذاء العين ذاتها.

قررت المرأة حضور الحفل الذي سيكرم حبيبها خلاله. لكن الرسـائل التي تبـادلها مـعـهـا طيلة شـهر كامل، كانت تحاول اقناعـهـا بعـدم الحـضـور. ثم أخـذ يتوسل إليها أن تقلع عن الفكرة.. قـال في بعض رسـائله: «كيف لا يساوره الشك، حتى إذا استطاعت الوصـول إلى فـرايزر عبر ايينسـتاين؟ سيشتم رائحة فراش بكل تأكيد، يا حبيبتي.! سيحضر أعضاء الجمعية وزوجـاتهم، فـقط.. تقولين «الصحافة»؟! إنهم لا يحضرون إلى أشـياء كهذه، فهي ليست حدثا يهز العالم! إنهم يحصلون على قـائمـة، تسلم باليـد فيما بعد تتضمن الجوائز المقدمة. ثم منذ مـتى كنت تعـرفين كصحافية؟! ما الذي يجعلك، تهتمين فجأة، بشكل كـبير بمـراسيم الجمعية؟ سيتعرف عليك فورا، شخص مـا ممن رأوا صورتك على كتبك. أرجوك، بحق الله! وسيسعى إلى اسـتنشاق رائحة علاقة، جعلتك تأتين هنا.. وكيف نستطيع أن لا ينظر كل منا إلى الآخـر؟! تعـرفين أن هذا مستحيل فأنت لست أي شـخص، على الرغم من أنك تريدين أن تكوني، أحيانا، أي شـخص».

كـتب أيضـا، فـيما بدا أنه رد على خـيبة أمل وامتعاض من جـانبـهـا: «هناك أشياء لا نستطيع امتلاكها. نحن كما تقولين، لدينا الكثير.. أكـثر مما يمكن أن يحلم به الآخرون. ربما أكون ممن يؤمنون بالأوهام، فأقـول لك أن اسـتمتاع كل منا بجسد وصـداقة الآخر، يتكامل مع النجاح والانجاز الحقيقي، خاصة بالنسبة لك يا عزيزتي. انني متأكد بكل موضوعية، أنك إحدى الأسماء العظيـمة المقبلة.. إذا كنا لا نريد أن نحرم من اللقاءات الهانئة المسـتقرة، فإن علينا أن لا يشارك أي منا في الاحتفالات العامة بانجازات، الآخر، كما يفعل المتزوجون.. ما الذي يجعلك ترغـبين في الجلوس. كـزوجـة لأحـد أعـضــاء الهيئة التعليمية هجرها زوجها في الفراش، ولم يعد يحدثها؟ لماذا تأتين لترتدي ابتسامة ملائمة للمناسبة، كما ترتدي المرأة قبعة لمناسبة ما؟!».

رغبت مرة أن تهدي أحد كتبها باسمه، فأبدى أسفا ممتزجا بالألم، لأنه مضطر للامتناع عن القبول كتب لها:

«إنك تفشين بذلك أسرار عالمنا الخاصة مهما تحايلت بوضع الأحـرف الأولى، أو اسـتـخـدمت أسماء مستعارة معروفة لنا فـقط. أنت تقرين للآخرين بوجود شيء ما. دعينا نحافظ عليها كما فعلنا طيلة خمس سنوات تقريبا.. نحن، منفصلين، عاديون في عيون الناس. إنه الثمن أو المكافأة، يعلم الله، الذي ندفعه أو ننالها مـقابل ما سنبلغه مستقبلا. دعي أجهزة الاعلام تتخبط وتتوقع.. أعرف أن الكتاب لي، ويخلدني في الأجيال القادمة».

كانت الساعة بلغت الخامسة مساء، عندما أخذت بيريل فيلس تقرأ الرسالة الأخيرة. لم تكن الرسالة من رسائله المهمة فهي لم تتحدث عن مشكلة، ولم تكن من الطراز الممتلىء إثارة حميمية مختنقة، مصاغة بعبارات موجزة.. كان يكتب وهو يتناول «ساندويش» على طاولة مكتبه، ويفكر بمحاضرته البغيضة المقررة لمؤتمر هونغ كونغ، كتب أنه قرأ خمس صفحات فقط (فذكر أنه كان يشير إلى جزء من أعمالها، أعطته له لقراءته)، لكنه لم يستطع الانتظار لكي يخبرها أن تلك الصفحات مثيرة ومكتوبة بأسلوب جديد، وأنها، في الوقت ذاته، بارعة وسريعة الخاطر، كأنها خربشات كتبت على عجل.

نهضت بيريل فيلس.. كانت لا تزال تتثاءب فتتجشأ غازات معدتها الفارغة.. أحصت ثلاثة عشر عقب سيجارة في مرمدة السجائر، أصيبت بدوار لتغير اتجاه تركيز عينها.. كانت حولها مكتشفاتها الثمينة.. نظرت إلى طاولة مكتبها الخشبية الصفراء الجميلة وشعرت بالقهر المكبوت لدخولها إلى ماضي أشخاص آخرين.

استحمت، وسوت فراش سريرها المهمل، وانتقت قميصا من الحرير ارتدته مع بنطال.. لقد وجد الصندوق بمحتوياته، مكانه في شقتها إلى جانب الطاولة والكرسي القديم، أصبح الصندوق جزءا من اهتماماتها، مؤسف أن ذلك اليوم كان يوم أحد. كان يمكن أن تهاتف المكتبة العامة لتسأل ما إذا كان لديها أي من كتب المرأة. وكان في امكانها أن تذهب بنفسها لتقرأ عن تلك المرأة. ربما تكون شخصية الرجل معروفة للذين يقرأون اكثر مما تقرأ.. هذه الرسائل مهمة. فهي اكتشاف

وقيمة حسية أدبية.. اتصلت بصديقها بائع «الخردة» اكثر من مرة، لكن كان بالتأكيد، يحضر حفلا من حفلات مساء الأحد. تغلبت على شعورها بنفور غير عادي من الحديث مع أي إنسان، فأدركت كم يحتاج المرء إلى أن يكون بين الآخرين، وكيف تستولي العزلة عليه وراحت بيريل فيلس تنتظر صباح الاثنين بصبر نافد.

* * *

سألت، في الاسبوع التالي صديقها تاجر الخردة، وشخصين تعرفهما يعملان في مواقع رئيسية في المكتبة العامة ومكتبة الجامعة، ولم يكن أي منهم قد سمع بتلك المرأة الكاتبة. كان موظفا المكتبتين حذرين ويجدان صعوبة في الاقرار بجهلهما. لأن ذلك يعد زلة، وعيبا مهنيا. فعلى كل منهما أن يعرف أسماء الكتاب المهمين، أو الذين يقتصر تداول أسمائهم على فئة قليلة من الناس. لكن فهارس المكتبتين لم تحتو على أي كتاب لها. كانت هناك عدة عناوين مفهرسة كأنها في مستودع، وانضمت إلى أكداس المراجع التي لم يعد القراء يطلبونها بشكل عام فأصبحت تعار بناء على طلب خاص.

استطاعت بتصميمها ومهارتها في تتبع ما تريد، أن تتعرف على بروفيسور في العلوم، في جامعة شهيرة جداً. لم تره الرسائل، لكنها وضعت أمامه جميع الحقائق والمعلومات التي استخلصتها من الرسائل، ويمكن أن تقود إلى معرفة شخصية الطرف الآخر في علاقة الحب المتميز... لم تجد أحدا يعرف شيئا مهما عن تلك الفترة، أو عن الحقل الذي كان يعمل فيه (عرفت أنه كان يعمل بالتأكيد في حقل فيزياء الأرض). ولم تجد اسما قد يكون قريبا منه في قائمة الفائزين بجائزة نوبل

الذين لا يزالون أحياء.

اقترح تاجر الخردة أن تحتفظ بالرسائل «من أجل أحفادنا يا عـزيزتي» ضـحك وهو ينظر إلى وجـبـة طعام على طاولته، وقـال: «حتى الرسائل التي يكتبها أناس عاديون، تصبح قابلة للبيع إذا انتظرت خمسين عاما، ومثلها أيضا البطاقات، وقائمة الملابس التي تكتبها المصبغة.. أليس كذلك؟! وإلا كيف يمكن أن أتمكن من دفع ثمن وجـبـة كهذه لاقدمها لك؟! الناس يشترون أي شيء...!» .

«ويلي» ...!

عملت سارة عندنا قبل أن تسوء حال ساقيها.. أصبحت بدينة جدا، وتحولت بشرتها إلى اللون البني المصفر، كالبالون الذي تشع ألوانه عند نفخه. كانت تضع على عينيها نظارة ذات إطار ذهبي، وتتقن الطبخ، رغم أنها تكثر من الزبدة.

هذه هي الاشياء الملفتة التي كنا نلاحظها فيها.

كان لها أيضا، زوج اقترنت به شرعيا في الكنيسة، وثلاثة أبناء : روبرت وجانيت وفيليسيا.. كانت تربية هؤلاء الثلاثة شاغلها الأول دائما.. كانت تسرح بتفكيرها بعيدا، كما يحدث لكبار السن، وهي تقوم بأعمال التنظيف، لكنها كانت تفكر بأولادها.

واأسفاه! انا السبب!

عبارة كانت تنطلق من فمها حين لا يرسل لنا الجزار الكبد، مثلا، أو تمطر السماء بينما تقوم بعملية الغسيل الاسبوعية. لم تكن تعتقد استقاء من معاناتها الذاتية في الحياة، أن الأمور يمكن أن تسير، في الدنيا بأفضل مما ترى.

كانت قلقة بشأن أولادها لأنها أرادت أن يعرفوا مكانهم وطريقهم في الحياة ورغبت أن تعلمهم. أحبت أن يحصل الابن على عمل نظيف ومريح، وأن تكبر الابنتان عذراوتين وتتزوجا في الكنيسة. هذا كل ما تتمناه.

جعلها التركيز البارع على الحياة الآخرة، أكثر من الحياة الدنيوية، الذي تعلمته في مدرسة الارسالية الدينية، تفتقر إلى الخطورة أو الجرأة، أو الحرية، أو حتى الثقافة الكافية، التي تقودها إلى التفكير بأن أي مكان يمكن أن يكون مكانا لابنائها.. كانت تعتقد أن هناك مكانا لابنائها، لا ينازعون فيه البيض أمكنتهم.. لكنه مكان، على أي حال، وهي تريد أن يصلوا إليه ويمكثوا فيه...

كانت في مستوى من التفكير الواقعي، بحيث عرفت أن تحقيق هذا الهدف ليس سهلا. وقد كانت تتحفظ أيضا في التساؤل عن سبب صعوبة ذلك.. كانت تقول:

عليك أن تعيش في هذا العالم كما هو!

كانت الاشياء التي تتمناها لأبنائها تبدو مألوفة وعادية. لكنهم لم يبلغوها، ولم يكن من حقها كما يبدو أن تتطلع إلى تلك الاشياء.

اسـتأجرت، في البداية، غرفة لابنائها في منزل قريب لها يقيم في الضـاحـيـة. كـانت تدفع له ثمن طعـامهم وتزورهم كل أحد، وتـتـوقع من القـريب، ابن خـالتـهـا، أن يعنى بانتظامـهم في الدراسـة، وعـدم تسكعهم في أنحاء الحي خلال الاسبوع.. كان عـمق ايمان سارة بضرورة التعليم لا يعادله شيء سوى الرعب الذي يتملكها من الظلام.

لـكن، سرعـان مـا تبين أن روبرت يمضي مـعظم الوقت في ملعب الجولف..

لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟!

كانت تردد بحرقة، بينما يقف روبرت أمامها ببلاهة، ويفتح كفه ليريها ستة بنسات وقطعة تيكي (1) مبللة بالعرق المتصبب من راحـة يده.. أما فيليسيا فقد كانت تخرج دائما إلى الطرقات الـتـي تـعـبـق بالدخـان، تصرخ وتعـبث، كما يفـعل الاطفـال الآخرون.

ربما كـان الأمـر مـقبولا.. بالنسبة للاطفال الآخرين الذين يصـبحون سعاة أو ممرضـات أو مرضـعات حين يكبرون.. لكن ليس لأطفال سارة.

ولذلك، أرسلتهم إلى مدرسة بعيدة.

سرعـان مـا تتـالت قوائم الأشياء التي يتعين توفيرها لهم.. وتـوالـت المـناقـشـات التي لا تنتـهي، مع الزوج عند البـوابة الخلفـيـة، والتي كـانت تبـدأ بصـوت خـافت وتنتـهي حادة.. وأخذت تتلقى ايصالات زهرية اللون لتسديدها..

انفقت سارة عليهم كل ما تملك، ولم تنفق ثروتها البالغة تسعة باوندات في حساب التوفير بمكتب البريد.. فالثروات تذهب وتأتي، أما كل ما تملك فكيف يعود؟! انفقت أيضا كل راتبها لجميع الشهور التالية، ولم يكن ذلك يكفي أحيانا. فالأطفال يدرسون في مكان بعيد في «ناتال» ولم تكن تستطيع أن توفر ثمن بطاقات القطار لكي يزوروها سوى مرة واحدة في السنة.

لهذا كانوا يقضون العطلات كلها سوى عيد الميلاد، في المدرسة. لكنهم كانوا يتعلمون هناك.

كانت تطلعني على رسائلهم: غير محددة، خالية من العواطف وتطلب شيئا في العادة، كرسائل الاطفال الآخرين لترسلها لهم. تلقيت رسالة شكر من الابنة الصغرى جانيت، كانت الرسالة مهذبة، لكنها خالية من أية إشارة إلى ما قد تكون الهدية أحدثت من سرور.

كانت سارة، تطلب مني دائما أن أقرأ الرسالة. أعرف أنها كانت تفعل ذلك لتكتشف إذا كنت أعتبرها رسالة مهذبة! كان هذا هو الأمر المهم بالنسبة لها! كانت السكينة والسعادة تطغيان على محياها، وهي تعيد في الرسالة وتردد: «سيجدون من يرعاهم».

أحسست بالخجل. من أن أدعها تستأجر غرفة لهم في الحي، حين اقترب عيد الميلاد، وحل موعد قدومهم لقضاء العطلة السنوية. أخبرتها أن بامكانها احضارهم ليقيموا معها في الفناء، إذا أرادت.

ارتدت فستانها الأسود، ولفت رأسها بشال مهدب، كانت تتمسك بعادات من العصر الفيكتوري، وخرجت مبكرة جدا، للقائهم في المحطة، لأن ساقيها كانتا تؤلمانها ولم تكن تستطيع الاسراع في المشي.. غابت النهار كله فشعرت ببعض الغضب لكنني لمست في عينيها إحساسا احتفاليا، حين عادت مع أطفالها الثلاثة، فلم أقل شيئا.

كانوا أطفالا طيبين بصورة واضحة ولم أر أطفالا مهذبين مثلهم، في السابق، خجولين، يحسبون خطواتهم، وحذرين وهم يلعبون. كم كان جميلا منظر الطفلتين وهما جالستان صامتتين في الشمس، مستندتين إلى جدار غرفة والدتهما بينما يلهو الولد ببعض الحجارة الصغيرة، وعصي قصيرة، قرب السور، كانت الطفلتان تغسلان أشياءهما، وتحيكان قبعات من الصوف الأحمر، وتخفيان ضحكات قصيرة، غير مسموعة، كخرير جدول تتدفق مياهه في الأسفل وتغيب في مكان لا نراه تحت الأرض. كانت ابتساماتهما نادرة وعذبة، شعائرية لا ابتهاجية.

اما الصبي، فلم يكن يبتسم على الاطلاق. أعطيته، مرة، مسدسا يرش الماء كان نسيه في المنزل طفل زائر، فأخذه كمن يتقبل انزال عقوبة به تكفيرا عن ذنب ارتكبه.. قالت سارة مبتسمة بفخر «وضعه في صندوق وتركه، يا سيدتي! كبر عليه ان يحمل ذلك المسدس أيتها السيدة، فهو يشعر أنه رجل كبير الآن!!».

لم يكن مسموحا لهم الخروج من فناء البيت الا مع أمهم أو مع مرافق تختاره هي. اعتادوا أن يقفوا خلف البوابة..

وينظروا إلى الخارج.. خرج روبرت مرة وغاب طيلة الصباح، ثم عاد عند الغداء معفر القدمين، والأعشاب ملتصقة بثيابه.. أمضت سارة الصباح في الشكوى وهي تقول: اعرف أين ذهب! ذهب إلى ملعب الجولف، انه ذلك الملعب اللعين!

كانت ساقاها تؤلمانها، ولولاهما لخرجت في اثره. جلدته بالسوط بشدة، دون أن يبدو عليها الغضب، بكى بحرقة من الحزن والاكتئاب، وليس من الألم كما كان باديا..

تحدثت سارة أياما عن فعلته الطائشة، تلاحقها ثلاثة أزواج من العيون وهي تخرج من المطبخ إلى الفناء.. أبقت الصبي على مرأى وهو يلعب في الساحة، تحت أشعة الشمس الساطعة فوق رأسه.

كانت سارة صارمة إلى درجة محزنة، مع الأطفال، وتسدي اليهم النصح والتحذيرات دائما. كانت أبسط هفوة لأي طفل تجعله، مع أخوته، عرضة للتقريع واللوم فترة طويلة، أما حين تصفو نفسها فإن الشرارة تنطفىء وتعود إلى رشدها.

قلت لها مرة: انني أعتقد أنها ربما تعاملهم بقسوة وأن هذا ليس صوابا. لكنني أدركت في داخلي أنني لا أعرف ما الذي سيحدث لهؤلاء الاطفال. صمتت لحظة وبسطت أمامي رأيها بأوضح ما تكون الحقيقة.

«لكن عليهم أن يواجهوا الحقيقة يوما يا سيدتي! إذا تعلموا الآن، أنهم لا يستطيعون عمل ما يشتهون، فلن يشعروا بالغضب فيما بعد.

يجب أن يتعلموا!!»

وكررت بحدة: «يجب أن يتعلموا!»

كانت تعاني كثيرا، بسببهم.

عادوا إلى المدرسة بالقطار، لعام آخر، من يدري بماذا شعروا؟! مستحيل أن يعرف أحد مشاعرهم. وحدها جانيت الصغرى، بكت قليلا. ابتسمت سارة «انها الذكية جيم. ستكون مدرسة»

انها في الخامسة وتبدو في سنها الحقيقية. أما فيليسيا التي تكبرها بعامين، وتتمتع بجسد امرأة شابة، فقد كانت معها في نفس الفصل الدراسي. كان المستقبل غامضا بالنسبة لها. أما أمام جانيت، فلم تكن سارة تكف عن الابتسام بثقة حين تتحدث عنها.. كانت ترى لها موقعا في الحياة!

لم يعودوا إلى فناء منزلنا ثانية. ساءت حال ساقي سارة، بصورة كبيرة، فتركت العمل، وذهبت للاقامة في الضاحية واستطاعت أن تجد عملا بسيطا في غسل الملابس في البيت.

كان معنى ذلك بالطبع، نهاية المدرسة الداخلية. فقد صار الاستمرار متعذرا، وبما يكسبه الاب وحده مقتطعا منه ثمن الطعام وأجرة الاقامة في المجمع. عاد الاطفال إلى البيت للاقامة مع أمهم والتحقوا بمدرسة المجمع.

كانت تأتي لزيارتي، وألمس المشكلة التي تعيشها بإحساسها، إنهم فقدوا موطىء قدم. لكنها كانت مصممة على حماية أقدامهم من الانزلاق، وتعويضهم عن خسارة فرصة التعليم الجيد، بأن تتولى بنفسها تدريبهم على بلوغ الطريق الذي يجب أن يسلكوه.. كانت تحدثني وهي جالسة على كرسي

المطبخ وتمد ساقيها اللتين تبدوان كعمودين سميكين بالضمادات التي تلفهما.

لم تعد تأتي بنفسها، فقد ساءت قدماها أكثر. كانت ترسل الاطفال لرؤيتي، وغالبا ما كانت ترسل جانيت وحدها. لم يكونوا يطلبون شيئا.. كانوا يقفون طويلا في الفناء الخلفي، إلى أن ألحظهم ، فيجيبون على أسئلتي بهدوء جم، وعيونهم تنظر إلى أي مكان إلا نحوي.

نعم، ساقا أمهم في حالة سيئة.

لا، إنهما كما كانتا دائما.

لا، انها لم تعد تستطيع العمل في الغسيل.

نعم، ما زالوا في المدرسة.

كنت أشعر أنهم لا يشعرون بالحرج مني، ولكن لاجلي! فقد كانت وجوههم تفصح عن ادراكهم انني لا أستطيع عدم ترديد هذه الأسئلة، لأنني لا أعرف ولا أستطيع تخيل وضعهم المعيشي، الذي هو بالتالي خارج نطاق أسئلتي. كانوا يحصلون عادة على برتقالة لكل منهم وثوب قديم أو «كنزة» من الصوف أعثر عليها بين الامتعة العتيقة في المنزل. كنت ألاحظ في كل مرة يأتون ملابسهم الرثة الفضفاضة، تزداد اهتراء وقدما.. كانت فيليسيا تثبت ثوبها بدبوس، ويرتدي روبرت سروالا به مزق صغيرة جانيت أيضا تلبس تنورة رثة مهلهلة، وهي التي كانت تلبس الملابس الأنيقة.

كانت أسعار الطعام والملابس ترتفع باستمرار وأعتقد أنهم كانوا يزدادون فقراً.

مر وقت طويل دون أن يزوروني. كنت أسأل النساء الأخريات من مواطناتها كيف سارة؟ هل رأيتنها؟ لم يكن يحببنها كثيرا، فكانت اجاباتهن عائمة ومرتجلة..

سمعت أنها مريضة، وأن قدميها تؤلمانها.

قالت خادمتي، يوما، وهي تنظف طاولة المطبخ: أن زوج سارة لا يعمل. قلت:

«كيف لا يعمل؟ كيف يتدبرون أمورهم؟».

قالت كارولين: ساقاها تؤذيانها، ولا تستطيع العمل. قلت انني أعرف، ولكن يجب أن يأكلوا، فقالت ان الولد الصغير يعمل في مصنع الألبان، قالت انه ينظف ويغسل أرض غرفة التسليم.

طلبت منها أن ترى سارة، حين تذهب إلى الضاحية في المرة التالية، وأن تخبرني بما يمكن أن أقدمه للمساعدة. قالت حين عادت ان زوج سارة وجد عملا آخر وأنه لم يعد، بسبب السن يستطيع الاستمرار في عمله القديم.. لقد وجد عملا «أصغر». سألتها:

«هل هناك ما يمكن أن أفعله لمساعدة سارة؟ هل أخبرتها؟»

وكأنها يئست من قدرتي على الاستيعاب:

«وجد زوجها عملا آخر!»

جاءت كارولين صباح الثلاثاء، من الشرفة الخلفية حيث كانت تكوي الملابس، وقالت: إن ابنة سارة في الفناء ثم عادت إلى الشرفة على الفور.

كانت جانيت واقفة تحت شجرة الفلفل، وتحك قدميها الحافيتين بالحجارة في رفق. استطعت أن أعرف من وقفتها أنها انتظرت هناك طويلا، إلى أن لاحظتها كارولين.. قالت: «صباح الخير أيتها السيدة» واقتربت مترددة من الدرجات وهي تنظر إلى قدميها.

لم تعد فتاة صغيرة، تمددت البطن المستديرة الطفولية إلى ردفين منحنيين وتشكل أعلى «الكنزة» القصيرة باستدارة الصدر المرتعش. كانت «كنزتها» متسخة وكانت جانيت تضع في أذنيها قرطا نحاسيا، به حبتا زجاج صغيرتان .

وقفت تنظر إلي دون أن تحرك رأسها. قلت وأنا مدركة أنني لم أعد أخاطب طفلة:

«سمعت أنكم تواجهون مشاكل يا جانيت»

ردت بصوت خافت: «نعم سيدتي».. كان صوتها خافتا.. ولا يزال يحمل نبرة طفولية سألت:

«أفقد أبوك عمله؟»

قالت «نعم» وهزت رأسها ببطء كما تفعل سارة. «وقعت بعض المشكلات».

وسألت: وروبرت يعمل؟ أجابت أنه يعمل في مصنع الالبان، ونظرت إلى قدميها. سألت ما إذا كانت فيليسيا وجدت عملا. كنت معنية بمعرفة أمرها، لانني لا أزال أذكر حلم سارة بأن تصبح طفلتها ممرضة.

قالت: «ذهبت يا سيدتي».

ماذا؟ وتنبهت لكي أسمع بوضوح اكثر.

اجـابت! «ذهبت إلى بلوفـونتين يا سـيـدتي» أجـابت بوهن شديد بحيث التقطت كلماتها بصعوبة.

«تزوجت يا سيدتي»!

قلت: «حسنا هذا رائع! رائع جدا، أليس كذلك؟!»

وابتسمت «أمك سعيدة بالتأكيد»!

لم ترد بكلمة واحدة، فقلت:

«لا يـوجـد في المـنزل إذن سـواك؟ ولا تزالين في المدرسـة؟ مازلت تريدين أن تصبحي مدرسة. صحيح؟» كنت متأكدة أنها سـتـبـتسم الآن، وترفع صوتها الذي كان يبدو أنه سيتلاشى ويموت، ليهرب مني ويتجنب مواجهتي.

قالت خجلة: «انني في البيت».

رددت : «في البيت؟!»

«نعم في البـيت، مع أمي» كان صوتها متهرباً يحاول جاهدا أن يبتعد في صمت

قلت بنبرة عالية :

«هل تعنين أنك في البيت دائما؟»

قـالـت: «أنا في البـيت مع أمي قـدمـاها تالفـتـان الآن، ولا تستطيع المشي أبدا» سألتها:

«أتقـصــدين القول انك لا تذهبين إلى المدرسة على الاطلاق؟ وتعتنين بأمك فقط؟»

قـالت: نعم، وهي تحـملق في قـدمـيـها، وعيناها مفتوحتان باتساع شديد. ثم رفعت رأسها.. ونظرت إليها دون اهتمام أو رياء، وبابصار من يحدق في قرص الشمس المشعة.

قلت، ولا تزال نبرتي مرتفعة:

– «انتظري يا جانيت! لدي شيء لك، أظن أنني..» ودلفت الى المنزل مسرعة.. اسرعت إلى خزانة الملابس وأخذت ثوبا، وتنورة «كـوردروري» قـديمـة، ولففتها في صرة. عدت إلى غرفة النوم بعـد أن سرت نصف المسافة وأخذت خمسة شلنات من حافظة النقود.

كـانت لاتزال، واقفة في الخارج، كما تركتها.. كان يبدو أنها تكاد لا تدري أين هي، أعطيتها الصرة، قائلة «أظن أنها مناسبة لك يا جـانيت»، وأخـرجت النقـود، كأنها قطعة ساخنة، وقلت: اعط هذه لامك!

قالت: شكرا أيتها السيدة، وبدت كما لو أنه ليس لها صوت عـلى الاطـلاق. ربطت النقـود في قطعـة قماش، وطوت الملابس مرة أخرى.

بقـيت في الفناء، لا أدري ماذا افعل. كانت كارولين تنظر إلي من نافذة الردهة الخلفية. خاطبت كارولين فجأة:

«كارولين! قدمي بعض الشاي لجانيت!»

اعـتادت كارولين أن لا تتناول افطارها قبل الساعة الحادية عشرة وكـان الموعـد قـد حـان. ذهبت إلى المطبخ بعـد دقـائق، فـوجـدت جـانيت جـالسـة إلى الطاولة ووجـهها يختفي خلف

فنجـان شاي ضخم، وأمامها ثلاث شرائح خبز وبعض المربى. قلت:

«هل الأمـور جـيدة يا جانيت؟» فأخرجت وجهها من خلف الفنجان، وابتسمت بشحوب شديد، وعيناها تفيضان بالخجل.

سـمـعت كـارولين تتـحدث إليها، ثم جاءت إلي وقالت: انها ذاهبة الآن.

رأيتـهـا تقف في الفناء مـرة أخرى، وبيدها الصرة. خرجت مبتسمة وقد انتعشت نظرتي اليها، وقلت:

– «رافـقـتك السـلامـة يا جـانيت! أبلغي امك تمنيـاتي لها بالتـحسن. يجب أن تأتي إلي لتـخبريني عن صـحـتها، أليس كذلك؟!»

لم أسـمع جـوابا، ولاحظت فـورا، أنها تبـذل جـهدا هائلا للسـيطرة على نفسـهـا، وبدا أنها تريد أن تنفـجـر بكاء. كان جـسـدها يمـوج ويرتعش بالدمـوع التي اندفـعت تجـيش من عـينيـهـا. اتسعت عيناها أكثر واكثر.. وازدادتا لمعانا ثم بدأت بالبكاء بصـوت عـال.. تدفـقت عـيناها وأنفها، وارتفع بكاؤها المشبع، بماء الدموع، وتشنجات الفراق.

سألتها: «ماذا حدث يا جانيت؟! ما الذي حصل؟!»

لكنهـا كـانت مـسـتمرة في النحيب، وتحاول أن تمسح بلل وجـهـهـا بمـقـدمـة ذراعـها وتنظر باستحياء شديد إلى مكان تسـتطيع أن تبكي وتجفف دموعها فيه... لكنها لم تجد أمامها شيئا.

كـانت هناك الصرة، ولكن كـيف تسـتـخـدمها؟ كيف يمكن أن تبكي أمامي، داخل صرة ملابس؟!

ألححت في السؤال:

«لكن مـاذا حـدث، يا ابنتي؟ مـا المشكلة؟ لا يصح أن تبكي هكذا! ماذا حدث؟ أخبريني».

حاولت التحدث، لكن صوتها اختنق بالارتعاشات المتواصلة لنوبات البكاء الطويلة.. نطقت أخيرا:

«أمـي.. مريضة جدا..»

وانخـرطت في مـوجـة بكاء أخـرى، وتجهم وجهها وعادت الدموع تسيل على خديها، مسحت انفها بذراعها المبتلة..

«مـاذا اسـتطيع أن أفعل لها؟ ماذا يمكنني أن أفعل؟ خذي ، خذي، هذا!»

وأعطيتها منديلي.



التحـــولات

همست داخل نفسها..

«حتى القطة تدفن وسخها.. أما أنا فأحمله معي!»

فكرت عدة مرات أن تقول ذلك بصوت عال، خلال الأسابيع التي تلت عودتها إلى المنزل، من المستشفى. لم تعرف إذا كان سيضحك، أو أنهما سيصلان إلى حد الضحك. كانت المرة الوحيدة، التي تحدثا فيها حول هذا الشيء الشاذ قبل بضع سنوات..كانا لا يزالان ممددين في الفراش صباح ذات يوم عطلة ممتع، يتبادلان صفحات الجريدة، كالعادة، قرأت مقالا حول البطالة العمالية، والمومسات المراهقات.. قالت يومها: يا إلهي! ألم يجد مسؤولو الرعاية الاجتماعية عملا

أفضل لتلك الفتاة، في المصنع الذي ينتج أكياس البلاستيك المخصصة للذين يريدون إفراغ ما في أمعائهم؟! لا عجب أن تلك البائسة قررت الخروج إلى الشارع..!

تذكرت بوضوح ذلك الصباح، وتلك الجريدة، أخذت تستعيد المزيد مما دار بينهما يومها.. انتقلا إلى الحديث عن وحشية عصر التصنيع، وكيف عزا الماركسيون الأوائل إلى هذه الظاهرة حالة الاغتراب، التي سوف تختفي عندما يمتلك العمال وسائل الانتاج.. لكن المصانع في الصين والاتحاد السوفياتي، لا تقل وحشية وكآبة عن مثيلاتها في الغرب! تذكرت تذكيرها إياه أنهما زارا بكين معا، وأن عمال المصانع الصينية! ينالون على الأقل، فترتي راحة يوميا كل منهما عشر دقائق، لممارسة رياضة «الجمباز» أجاب آنذاك: هل تقايضين هذا باستراحة لتناول الشاي، أو بالكلام لقاء أجر هزيل؟!

كان ذلك الشيء البلاستيكي، المار فوق حزام تجميع الانتاج، أمام تلك المومس ذات الستة عشر عاما، بعيدا عنهما، وهما مستلقيين يضحكان في سريرهما، يوم الاحد، كما يعيش أي عامل مصنع.

أما الآن، فإن ذلك الشيء البلاستيكي الشاذ متصل بجسدها.. ينبت منها، عبر ذلك الجرح الصغير المختفي خلف ملابسها.. خرجت من غرفة نومها، وفهم السبب دون أن تصدر عنه كلمة واحدة. علموها في المستشفى كيف تتعامل مع ذلك الشيء.. كان الأمر يحمل خصوصية مرعبة، لا تبلغها خصوصية الممارسة الطبيعية. فالممارسة الطبيعية كانت عملا يمارسه كل منهما. لكنها الآن وحيدة مع وسخها.

قـال الاطبـاء ان ذلك الشيء سـيتم الاستغناء عنه في الوقت المناسب. قال الطبيب الأول انها لن تحتاج إلا ستة أسابيع فيما قـال الثاني ان الأمر لن يزيد عن ثلاثة أشهر. يبدو أنهما نسقا مـعـا تلك الحكاية الملفـقـة. قال إن كل الاجهزة داخلها سوف تلتئم ثانيـة، (سـتـة أسـابيع أو ثلاثة أشهر)، وان الفتق الذي ترك مـفـتـوحـا، سـوف تجـري خـياطته، وسيتم إصلاحها، وتصـبح سليـمـة مـعـافاة، ويعمل كل ما فيها بشكل عادي.. سـتعود إلى التدريس في مدرسة الموسيقى. ستعود الآن.. لم لا تعـود؟! يمكنهـا العـودة مـادام ذلك لا يتـعـبها. لكنها لم تشأ الذهاب حاملة ذلك الشيء معها.

كـانت تسـتـمع إلى المزيد من الحكايات، من أصدقاء يبغون تشـجـيعها، حول كيف تمكن أشخاص أن يعيشوا حياة رائعة وهانئة، وتعـايشـوا مع ذلك الشيء بشكل طبيعي، قيل لها: من بينهم أحـد أعـضـاء الأسرة الملكيـة البريطانيـة! كانت تسكتهم وتنهي رواياتهم المختلقة بالقول: لكن، بالنسبة لي، لن تستغرق أكـثـر من سـتـة أسـابيع (أو ثلاثة أشهر). لست مضطرة إلى التعايش مع ذلك الشيء..

اشترى لها «قفطانين» جميلين، اختارهما بنفسه، ويناسبانها تمامـا.. كـانا مطابقين للألوان والتفصيل الذي تحبه. نسيت في غمرة فرحها، أن عليها ارتداءهما لكي تخفي ذلك الشيء.. لكنها أدركت فـيما بعد أن هذا ما كان يريده، بالتحديد. كانت ترتدي هذا القفطان أو ذاك، عندما يزورهما الاصدقاء، وكانوا يعجبون بمـلاءمته لها، ويقولون انها تبدو رائعة، وانها تتمارض، فقط، كما تبدو! وكان يؤكد لهم أنها تتحسن بشكل طيب.

تحدثا عن أمر كهذا منذ فترة بعيدة، تحدثا قبل ذلك اليوم عن حياتهما.. عن خصال وتفرعات حياتهما المختلطة.. لكنها كانت حياة غير فردية إطلاقا! كانا يتحدثان عن المواثيق والعهود الطفولية، وأخوة الدم، ويرددان الأسئلة البيانية العاطفية، التي تطرح دون انتظار جواب عنها: هل تحبني؟ هل تحبينني؟ هل ستحبني دائما وإلى الأبد؟ إذا أصيب أحدنا بمرض غير قابل للشفاء، فإن الآخر لن يتركه يعاني.. أليس كذلك؟ لكن إذا حدث... لن يحدث ! ليس بهذه التجريدية الواضحة، بشكل درامي سخيف!

من الذي يمكنه أن يحدد ما هو «غير قابل للشفاء»؟! من يمكنه أن يحدد أي نوع من المعاناة، نهائي، ويشكل محطة فاصلة أخيرة في الحياة، ويجعلها لا تستحق أن تطول بصحبة المرض؟

.. هذه المرأة استؤصل أحد ثدييها منذ عشرين عاما، ولا تزال تشهد سباقات الخيل كل أسبوع. وهذا الذي فقد «البروستات» يمكن رؤيته يقرع كؤوس «الجن»، في أي حفل «كوكتيل» ترافقه زوجته الثالثة..

لكنها وجدت الوقت والمكان، لكي تحسم أمرها تماما، قبل أن تذهب إلى المستشفى لاجراء العملية الاستكشافية. قالت له: «عدني أن تساعدني على التخلص من المعاناة، إذا كانت النتيجة سيئة، وأصبحت الحالة سيئة جدا، في أي وقت.. عدني بذلك! يمكن أن أفعل أنا هذا لك، لو كنت مكاني..» لم يستطع الكلام، كانت ممددة بجانبه في الفراش، في الظلام.. انحنى نحوها ومرر ذقنه بعزم على كتفها، ليبث فيه وعده لها. آلمتها عظام

الذقن، وانخرطا في تعاهد حار..

وجدت، بعد العملية، الأنبوب الذي يتدلى منها، إلى ذلك الشيء.. لم يعودا إلى الأحاديث السابقة.. صارا يتحدثان فقط عن الأشياء السارة، وإحراز التحسن. كان ذلك الشيء البارز منها غير قابل للاغلاق، خلافا لأي جرح سواه.. كان يشبه علاقة حب يتوقف استمرارها على دوام تكتم الحبيبين عليها، ويؤدي البوح بها من قبل أحدهما إلى تمزيق الأغشية التي تغلفهما.

كانا كل منهما يبتسم للآخر كلما التقت عيونهما. ولم يعد الأمر محتملا أكثر مما احتمل.. كان لابد من حكاية ملفقة لتعزيز الروح المعنوية.. وكانت الحكايات تسرد مرات ومرات، كل يوم، وكلما جلسا يخططان ما ينويان عمله الأسبوع التالي، أو الشهر التالي، أو العام التالي، دون أن تتجاوز أو تصدق كل ما يقال عن استمرار الحياة اليومية.. لم تكن هناك كلمة غير كاذبة في كل ما يقال.

هل وصلت الاغراض من البقال؟ لقد اختطفت طائرة أخرى! هل أنت مرتاحة في هذا المقعد؟ يقولون ان انتخابات جديدة ستتم في الربيع.. نحتاج إلى كؤوس جديدة للنبيذ.. يجب أن أكتب بعض الرسائل.. اطلبي لنا قهوة وعيدان ثقاب.. أزمة أخرى في الشرق الأوسط.. اسحب الستائر.. الشمس في عينيك... يجب أن اصفف شعري يوم الخميس.

أمسكت بيده فشعرت بالكذبة الصاعقة.. فلم يعد الحلم حقيقيا، كما كان في السابق.

بقي شيء واحد، لم يمكن أن يصبح كذبا، بطبيعته.. كان هناك مكان وحيد يمكن للحب أن يظل حيا فيه.. لقد أسفرت الحياة عن خداعها، لكن العهد ليس مرتبطا بالحياة.

أخذها بسيارته إلى مصفف الشعر مساء ذلك الخميس. قال لها انها تبدو جميلة، عندما عاد إليها، شكرته بارتباك فتاة تخرج مع رجل، للمرة الأولى. كانت في داخلها تغالب أول إحساس عاطفي قوي، انتابها منذ شهور عدا الخوف والتقزز. كانت تحس بثقة جارفة به..

جلست ، تلك الليلة ، وحيدة في الغرفة التي أصبحت غرفة نومها، وراحت تعد الحبات المختزنة لديها.. وقبل أن تبتلع الحبات مع كأس من الماء، وضعت تحت ولاعة السجائر، ملاحظتها الأخيرة له «حافظ على عهدك! لا تعدني إلى الحياة!».

* * *

فهمت، منذ كانت طفلة، أن الموت نوم عميق وليس أكثر. رأت المرة الأولى، طائرا مستلقيا بجانب السور. لم يفتح الطائر عينيه عندما وخز بغصن صغير.. قالت لنفسها ان النائم يشعر بالانزعاج إذا حاول أحد إيقاظه من النوم.. لكن لا أحد يشعر بالازعاج خلال ذلك النوم العميق. لم تشعر بالخوف من الموت، لهذا السبب. لكنها شعرت برعب الاستيقاظ منه، والعودة مما لم يكن موتا على الاطلاق، ولم يمكن أن يكون موتا.

تحرك جفناها بغشاوة في النور الساطع. فتحت عينيها لتجد نفسها بين جدران المستشفى الصقيلة اللامعة.. كانت في يدها يد.. كانت يده..

الكاتبة نادين غورديمر

- ولدت وتعيش في جنوب افريقيا. وعرفت بمواقف تصادمية مع نظام التفرقة القائمة على اللون، التي يمارسها نظام بريتوريا.
- كتبت سبع مجموعات قصصية. وثماني روايات منها: «الزحف الخافت»، «عالم الغرباء»، «ضيف الشرف»، «رفاق ليفينغستون»، «الملتزمت»، «شعب يوليو»، «ابنة بورغر» و«ستة أقدام من البلاد».
- حصلت على جوائز أدبية عالمية منها: «جائزة الكاتب» والجائزة الفرنسية الدولية، وجائزة «جراند ايجل دور» ومنحت زمالة مجلس «نيل غن» للفنون في اسكتلندا عام 1981.
- وكانت أهم الجوائز التي حصلت عليها جائزة «نوبل للآداب» عن العام 1991.

الفهـــرســت

§§§ إصدارات اتحاد كتاب وأدباء الإمارات §§§

● **الإصدارات الشعرية:**

1 ـ قصائد من الإمارات	لعدد من شعراء الإمارات	.6
2 ـ صلاة العيد والتعب	عارف الخاجة	,6
3 ـ شدو الزمن	سلطان خليفة	;8
4 ـ مدية واحدة لا تكفي لذبح عصفور	سيف الرحبي	:8
5 ـ جغرافية الفردوس	جعفر الجمري	;8
6 ـ وردة للوطن وقبلة للحبيبة	عمر أبو سالم	;9
7 ـ هذا هو الساحل.. أين البحر؟	مؤيد الشيباني	؛9
8 ـ بحثاً عن النهر	رأيفت السويركي	؛9
9 ـ علي بن المسك التهامي يفاجىء قاتليه	عارف الخاجة	:9
10 ـ الفالس الأخير في سنتياغو	أربيل دروفمان ترجمة: كامل يوسف حسين	0
11 ـ آية للصمت	ضاعن شاهين	0
12 ـ الشيطان وقصائد أخرى	ليرمونتوف ترجمة: رفعت سلام	1
13 ـ ليجف ريق البحر	ثاني السويدي	1
14 ـ شيء من السهو في رئتي	جعفر الجمري	2
15 ـ ديوان سلطان العويس	سلطان العويس	2

● **الإصدارات القصصية والروائية:**

العنوان	المؤلف	السنة
1 ـ كلنا.. كلنا.. كلنا نحب البحر	لعدد من كتاب الإمارات	1985
2 ـ السمكة الصغيرة	تأليف: صمد بهرنجي ترجمة: علي بعد العزيز الشرهان وعمر عدس	1986
3 ـ أطفال آخر الزمان	تأليف: عزيز نيسين ترجمة: عمر عدس	1987
4 ـ الرجل العاشر	تأليف: غراهام جرين ترجمة: مصطفى كمال	1988
5 ـ الأرواح تسكن المدينة	أنور الخطيب	988
6 ـ فيروز	مريم جمعة فرج	988
7 ـ 12 قصة قصيرة	لعدد من الكتاب	989
8 ـ الرحلة العجيبة	تأليف: شوساكو إندو ترجمة: فكري بكر	989
9 ـ ميادير	ناصر جبران	990
10 ـ الطحلب	إبراهيم مبارك	990
11 ـ عندما تدفن النخيل	ناصر الظاهري	990
12 ـ طفول	سعاد العريمي	990
13 ـ الصمت	خليل قنديل	991
14 ـ موعد سري	تأليف: كوبو آبي ترجمة: كامل يوسف حسين	991
15 ـ هاجر	سلمى مطر سيف	92
16 ـ عصفور الثلج	إبراهيم مبارك	92
17 - مدينة للاموات ـ مدينة للاحياء	نادين غورديمر ـ ترجمة صبحي عمر	92

● **أدبـاء وكتاب من الإمارات:**

1 ـ سالم بن علي العويس — جمع وإعداد: عبد الإله عبد ا

2 ـ سلطان العويس تاجر استهواه الشعر — جمع وإعداد: عبد الإله عبد ا

3 ـ الشاعر الجامح خلفان بن مصبح — إعداد: شوقي رافع

4 ـ الماجدي بن ظاهر دراسة في فكره من خلال فنه الشعري — الدكتور فالح حنظل

● **دراسات مختلفة:**

1 ـ معجم القوافي والألحان — د. فالح حنظل

2 ـ أبحاث الملتقى الأول للكتابات القصصية والروائية في دولة الإمارات — عبد الحميد أحمد، رعد عبد الجليل جواد، يوسف خليل

3 ـ تاريخ الحركة المسرحية في دولة الإمارات 1960 ـ 1986 — عبد الإله عبد القادر

4 ـ فنجان قهـوة — عبد الله عبد الرحمن

5 ـ الإتفاقيات السياسية والإقتصادية التي عقدت بين إمارات ساحل عمان وبريطانيا 1806 ـ 1971 — علي محمد راشد

6 ـ غانم غياش ـ فارس من هذا الزمان

7 ـ ندوة الأدب في الخليج العربي — الجزء الأول

8 ـ الصراع حول مضيق هرمز — عبيد طويرش

9 ـ تحولات اللغة الدارجة — د. علي عبد العزيز الشرهان

10 ـ كتيب خاص عن الفائزين بجائزة سلطان العويس — الدورة الأولى

11 ـ أرجوزة تحفة القضاة — نظم: شهاب الدين أحمد بز، شرح: حسن صالح شهاب

- ندوة الأدب في الخليج العربي	الجزء الثاني	1991
- ندوة الأدب في الخليج العربي	الجزء الثالث	1991
- ندوة الأدب في الخليج العربي	الجزء الرابع	1991
- بهـــدوء	محمد عبد الله المطوع	1991
- الحداثة الأولى	محمد جمال باروت	1991
- ذاكرة الشتات	سيف الرحبي	1992
- الفائزون بالجائزة	(الدورة الثانية)	1992
- ابحاث الملتقى الثاني للكتابات القصصية ـواثية في دولة الإمارات	الجزء الأول	1992
- ابحاث الملتقى الثاني للكتابات القصصية ـواثية في دولة الإمارات	الجزء الثاني	1992
- ابحاث الملتقى الثاني للكتابات القصصية ـواثية في دولة الإمارات	الجزء الثالث	1992

تـــراث وفنـــون:

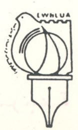
الألعاب والألغاز الشعبية في دولة الإمارات ـبية المتحدة	نجيب الشامسي	1991
الندوة العلمية لإحياء تراث ابن ماجد	الجزء الأول	1991
الندوة العلمية لإحياء تراث ابن ماجد	الجزء الثاني	1991

هذه الكاتبة ...

نادين غورديمر من جنوب أفريقيا حصلت على جائزة نوبل ١٩٩١ . تعالج في أدبها الروائي والقصصي الإنعكاسات المترتبة على الكائن البشري بسبب التمييز العنصري .

وقد تميزت بتنديدها بسياسة الفصل العنصري في بلادها ، وانكبت على معالجة العلاقات الفردية في محيطها بمباشرية فورية مكثفة .





منشورات اتحاد كتاب وأدباء الامارات
هاتف 364404 فاكس 364409
ص.ب 4321 الشارقة أ.ع.م

المطبعة الاقتصادية

السعر 15 درهماً